



مذاهب و شخصیات

موسیٰ بن نصیر

حیاتہ وعصرہ

تألیف

عبدالعزیز حافظ دینا



سَدَقَاتُ رَحْمَتِي



مُوسَى بن نَصِير
مِيَاتَهُ وَعَصْرَهُ وَفَتْوَاهُ

تَالِيفُ
عَبْدِ الْعَزِيزِ هَافِظِ دُنْيَا



موسى بن نصير

(نقلًا عن سير ملهمة لفرانكلين)

« .. لا سبيل الى أن نبني جيلا جديدا ،
يؤمن بمجتمعه وبأهدافه ، الا أن تكون لنا ثقافة
قومية تنبع من بيئتنا ، ونستمد عناصرها من
ماضيها ، وإيماننا بالوطن العربي ، وبالقومية
العربية ، والتعرف على تلك الأحداث التي صنعت
هذه القومية . وعن أبطالها الذين ناضلوا في
سبيلها على مر العصور .. »

« عبد الواحد الوكيل »

الإهداء

- الى شهداء العروبة وقوميتها في كل الازمان
 - في ميادين العراق وجباله
 - في القادسية والمدائن واليرموك
 - وفي ميادين السند وتحت أسوار القسطنطينية
 - وفي سهول الشام وبطاحه
 - في دمشق وحطين وعين جالوت
 - وفي سفوح الأطلس وأخاديدما
 - في قرطاجنة وتهودة وصنهاجة
 - وفي الأندلس ووديانها ، وفرنسا وسهولها
 - وعلى ضفاف النيل وشواطئه
 - في المنصورة ودمياط وقارسكور
 - وفي السويس وبورسعيد وقناتهما
 - قناة المجد والنصر والخلود
- اليكم يا شهداء العروبة كتابي هذا في تاريخ بطولتكم
المجيدة

المقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على زعيم النبيين والمرسلين وامام الاشتراكيين (وبعد) فان الامم لا تمشى بحاضرها وحده بل هي تتلفت بين حين وآخر الى ماضيها تستمد منه حوافز البطولة ودوافع المجد وتستلهم من أمجادها ما يشعل حماس أبنائها ويحفزهم على الاندفاع بكل طاقاتهم يشقون طريقهم نحو أمل بسام يربط ماضيهم بحاضريهم .

ومن فضل الله علينا أننا فى عهد نعمل فيه على بعث مجد الامة العربية ونتقنى فيه بقوميتنا ، ولن يكون فهمنا لهذه القومية واضحا الا اذا تعرفنا الاحداث الخطيرة التى مرت بها وأبطالها الذين صنعوا تلك الاحداث على مر العصور .

ولا شك أن موسى بن نصير أحد هؤلاء الأبطال المبرزين الذين ساهموا فى انشاء الوحدة العربية وحياء قوميتها .

ومن عجب أن بطلا مثله وفاتحا قديرا قام بدور كبير فى حياة أمتنا وكان له الفضل الأول فى تعريب المغرب وتحريره من الرومان المستعمرين حتى جعل الوحدة العربية حقيقة واقعة تمتد من الخليج الى المحيط - يغفل الكتاب تدوين تاريخه وفتوحه فى كتاب خاص يحمل اسمه تخليدا لما قام به من جليل الخدمات للعروبة والاسلام ، أفليس هذا عجيبا؟ .

من أجل ذلك رأيت من واجبي أن أسد هذا النقص
بإصدار هذا الكتاب عن موسى بن نصير ، أستعرض فيه سيرته
منذ مولده إلى أن أصبح المستشار الأول للأقليم المصرى من
الامبراطورية العربية ثم رئيسا لمالية البصرة ، ثم حاكما
للمغرب ، ثم قائدا فاتحا اندفع بكل ما وهب الله له من قدرة
وحماس ، فعبّر البحر وغزا الاندلس وقضى على أعظم قسوة
حربية أوربية فى ذلك الحين .

ولولا ذلك ما ثبت الامر للمسلمين ولقد المغرب عربته
التي جاهد فى سبيلها من سبقه من قبواد العرب أكثر من
نصف قرن من الزمان .

ثم ذلك كله على يد موسى بن نصير ، ولكن سيرته مرتبطة
ارتباطا وثيقا بالحياة التي ولد فى ظلها وبالاحداث التي تربى
فى كنفها ، فكان لا بد قبل أن نلتقى به أن نقف على أخبار
تلك الاحداث التي سبقت مولده بحوالى عشر سنوات ، لأن
الحديث عنها سيقودنا فى النهاية الى لقاءه والسير معه الى
آخر المطاف .

لقد جاءت فصول هذا الكتاب متتابعة تتناول هذه
الجوانب التي أوجزناها لكليلا نخرج عن موضوعنا .

الفصل الأول أسر والده (نصير) فى يثا خالد
ابن الوليد واعتناقه الاسلام وفجر حياة موسى السياسية وعن
بعض الأسباب التي فرقت الأمم الاسلامية عقب مقتل الخليفة
عثمان ووفاة معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد ومشاركة
موسى بن نصير فيها بسيفه الى أن وقع أسيرا فى يد المروانيين
بعد أن ظفروا بالخلافة .

والفصل الثانى عن المغرب واستعمار الشعوب الأجنبية
له الى أن حرره موسى من أسرهم ، وأعادته مرة أخرى الى
حظيرة الوحدة العربية الاسلامية .

والثالث عن إسبانيا قبل الفتح العربى لها ثم تحريرها .
وهكذا الى أن ننتهى بالقارىء الكريم الى خاتمة موسى ووفاته
وكلمة الختام لهذا الكتاب .

والملاحظ أن المؤرخين كابن خلدون وابن حيان وغيرهما من المعاصرين كانوا قساة في حكمهم على موسى ، فلم يروا فيه إلا رجلا عتيقا مقتصبا ، وأخذوا عليه أنه صرف همه في غزواته إلى جمع الغنائم واغتصابها دون الاهتمام بما كانت تثيره أفعاله هذه من كراهية الشعوب التي قهرها واثارة بعض قواد الجيش ضده معللين بطشه بالقبائل السائرة بالمغرب واستيلائه على مائدة طليطلة التي غنمها طارق ومنازعة مفيت الرومي في ملكيته لحاكم قرطبة الأسير بالطمع والاعتصاب .

ولكننا مع اعترافنا بأن موسى كان قاسيا في بعض تصرفاته - ينبغي أن نذكر حقيقة هامة ، هي أنه كان يتصرف بروح العصر الذي نشأ فيه والجو الذي تشبع به ، فقد فتحت عيناه على الخلاف الذي وقع بين الامام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ورأى معاوية يعصى أمر الخليفة الشرعي ويجرد عليه السيف في سبيل الفوز بالخلافة ، وشاهد عبد الله بن الزبير ينهج النهج نفسه . ثم المختار بن أبي عبيدة الثقفي (زعيم الشيعة) يقاتل للغرض نفسه . وشاهد أكثر من واحد يسفكون الدماء ويفتصبون ما ليس لهم ، كل منهم يهدف إلى انتصار عقيدته ومذهبه .

عاش موسى بن نصير وسط هذا الجو المليء بالفتن والثورات والمطامع قائم بمبدأ « الحق للقوة » .

فإذا أردنا أن نحكم على موسى بن نصير فيجب ألا يكون حكمنا عليه بمعايير عصرنا بل بمعايير عصره ، وإذا كانت البطولة في نظرنا الآن معانيها السامية التي تتفق مع مبادئ الشرف والأخلاق فإن البطولة في العصر الذي عاش فيه موسى لم تحظ بمثل هذه المعاني ، إذ لم تكن هناك غضاضة في أن يخرج البطل أحيانا عن قواعد المبادئ السابقة ما دام يستثير بذلك إعجاب المعاصرين بشجاعته وقوة بطشه وفي الوقت نفسه تحقق له ما يريد من نصر .

وإذا كان المؤرخون يأخذون على موسى كثرة الدماء التي أهدرها في أثناء استكمال فتح المغرب فإن ذلك كان ضرورة يقتضينها الموقف الحربي في ذلك السوقت ، وذلك لتثبيت الإسلام وادخال الهبة في نفوس القبائل التي كان الزومان

يشجعونها على مناوأة المسلمين والتي لم تركز الى الاستسلام ولم ترع العهود التي قطعتها على نفسها كما فعل « كسيلة » زعيم البربر الذي هادنه « أبو المهاجر دينار » واجتذبه الى الاسلام ، ثم جاء عقبة بن نافع ، ولخلاف وقع بينه وبين كسيلة ارتد هذا ثانية عن الاسلام ، وانقض بأنصاره من البربر ومحرضيه من الرومان على المسلمين فقتل منهم عددا كبيرا ، واستشهد عقبة وانسحب من نجوا الى برقة . وبذلك ضاعت جهود أربعين عاما بذلها المسلمون في سبيل تعريب المغرب .

ولما أراد المسلمون إعادة الكرة ثانية بقيادة حسان بن النعمان بعد أن قضوا على الروم قصدت لهم جموع البربر يزعماء ملكة جبال أوراس ، وحملوا على المسلمين حتى هزمهم وأقنوا منهم خلقا كثيرا ، وبهذا خرج المغرب من أيدي المسلمين للمرة الثانية .

كان كل هذا أمام موسى بن نصير وهو يغزو المغرب، فلم يقبل أن يهادن القوم كأسلافه وهو يعرف سوابقهم في الفدر فيطش بهم بشدة ، وكانت شدته هذه عاملا حاسما في الموقف جعل القبائل الثائرة تهرع اليه وتعلن الدخول في طاعته واعتناق الاسلام . فازدادت بذلك جيوش موسى زيادة سريعة لانكاد نجد لها شبيها في أي قطر آخر من اقطار الدولة الاسلامية وقت ذاك .

ومن هذا يتضح أن سياسة العنف التي اتبعها موسى في افريقية كان لها ما يبررها كما كان لها الأثر البالغ في تعريب المغرب وانتشار الاسلام بين ربوعه بسرعة لم يكن موسى نفسه يتوقعها ، ولولا ذلك ماخسست في نفوس المتمردين فكرة النزوع الى الثورة والاستخفاف بأمر موسى كما استخفوا من قبل بأسلافه ، وما استقر الأمر للمسلمين في المغرب الذي كان قبلة أنظار الرومان الطامعين .

ومهما يكن من أمر موسى بن نصير كفاه فخرا أنه نجح في استكمال فتح المغرب كله ، واتخذة قاعدة لفتح الأندلس وأصبح بمثابة الجناح الغربي للأمة العربية الاسلامية تخفق معه قلوب جميع العرب من الخليج الى المحيط .

وانه لما يسعدني أن أقدم للقارىء تاريخ هذا البطل
راجيا أن أكون قد خرجت من المراجع الكثيرة التي جاء فيها
ذكره في سطور معدودة بصورة واضحة المعالم تعطي القارىء
فكرة صحيحة عن موسى بن نصير ماله وما عليه ، وماله في
راى - أكثر بكثير مما عليه . ولعل في سيرته وبطولته
ما يحفز الهمم ويثير في النفوس العمل على إعادة أمجاد
العرب بعهد أن وهب الله لهم الزعيم الوفي الرئيس
جمال عبد الناصر الذي كرس حياته وجهده في هذا
السييل .

ولا يفوتني أن أذكر أننا رجعنا إلى كثير من المراجع
الموثوق بصحتها وأهمها « فجر الأندلس » للدكتور
حسين مؤنس .

والله أسأل أن أكون قد وفقت ، انه خير عون وسند .

عبد العزيز حافظ دنيا

القسم الأول

نسب موسى بن نصر ومولده وفجر حياته السياسية

الفصل الأول

أسرى عين التمر

انطلق خالد بن الوليد في السنة الثانية عشرة من الهجرة (٦٣٣م) من أرض الوحي على رأس الجيش الاسلامي ووجهته أرض السواد (العراق) لذلك عروش المجوسية واعلاء كلمة التوحيد في تلك الأرض ، وسرعان ما أتم في عام واحد ما أعجز الأكاسرة والروم أن يتموه في أعوام كثيرة ، فلقد زحف برجاله في « أناة القطاة ووثبة الأسد » ، وفي « الكاظمة » بعث الى قائد الفرس « هرمز » يخيره بين الاسلام أو الجزية أو الحرب ويقول له : « جئتكم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

ثم انقض عليه في موقعة ذات السلاسل التي ربط فيها الفرس بعضهم ببعض بالسلاسل حتى لا يفر منهم أحد في أثناء القتال . ففضى على قوتهم ، وزحف بعد ذلك الى « المذار » حيث قيل له ان الفرس قد تجمعوا فيها فاقتتل معهم في ملحمة دامية حارب فيها كما يقول المؤرخون حرب حنق وضيفينة حتى أخذ بناصيتهم جميعا وقتل منهم حوالي « ثلاثين ألفا » ولولا النهر وركوب من نجا منهم ظهر السفن ما تبقى منهم أحد .

ورأى الفرس أن لاطاقة لهم بخالد منفردين فهرعوا الى رعاياهم من العرب المنتصرة المقيمين فيما بين النهرين يستنجدون بهم وفي واقعة « الولجة » التقى المسلمون بجميع أعدائهم وظل القتال سجالا بين الطرفين . وفي كمين أعده خالد وقع الفرس فيه كانت الهزيمة المرة وفرارهم من الميدان تاركين آلافا من القتلى وأحمالا لاعد لها من الغنائم النفيسة وقعت كلها في أيدي المنتصرين !

وأعقب هذه الموقعة موقعة « اليس » فقد تحصن فيها الفرس وظنوا أنهم فيها بأمن من سيف الغالبين وانضم اليهم رعاياهم من عرب السواد وبينما قائداهم الفارس « جايان » يهيب نفسه وأركان حربه لتناول الطعام اذ فاجأهم المسلمون من كل مكان وأطاحوا برقابهم بالسسيوف حتى خلطوا دماءهم بماء النهر وظلت تسيل فيه ثلاثة أيام متوالية تنفيذا لوعده خالد :

« ليجرين النهر بالدماء . » وقد قربت هذه الضربة خاتمة العهد المجوسي وزلزلت عروش الأكاسرة .

ثم أعلن خالد انتصار الوحدة الوطنية المؤزر ورفع علمها خفاقا على هذا

الجزء من أرض العراق • وانطلقت العيون الى مدينة الرسول العظيم
تذيع الأخبار فرحة مهللة ووقف الخليفة أبو بكر في الناس يملئهم أنباء
النصر قائلا ما معناه « يامعشر قريش ! عدا أسدكم على الأسد فغلبه عقلت
النساء أن يلدن مثل خالد » •

ثم تابع القائد المظفر زحوفه وانتصاراته فسلمت له « الحيرة » وهرع
حماتها يقدمون له الطاعة والدخول في الدين الجديد ، ومن أبي منهم
قدم له الجزية عن يد وهو صاغر •

وبدا لأبي بكر أن يوقف الفارس الشجاع في مكانه فلا ينطلق بعد
الحيرة حتى يوافيه زميله القائد « عياض بن غنم » ليكون كلاهما سنداً
للاخر فقد رأى الخليفة أن من تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين
والرؤم في الشام من اليسار ، فأراد أن يؤمن الأرض للمسلمين خصوصاً
أن العرب المنتصرة قد جمعوا أنفسهم واعتصموا في « دومة الجندل » •

وظل خالد في موقفه كأمر الخليفة قرابة العام وفي خلاله عرضت
له « عوارض » شتى لم تكن في الحسبان ، فتصرف فيها جميعاً تصرف
الرجل الذي خلق للتعقل في أجواء الحرب ، فلا تفجؤ حالة من حالاتها
بما يربكه أو يعيبه ، فقد علم أن الفرس قد تحصنوا في « الأنبار » وأنهم
قد حفروا حول الحصن خندقاً ليحجز عنهم لقاء المسلمين ويحميهم من
ضرباتهم • فلم يوهن هذا عزم خالد وفي التو أمر بذيخ الإبل العجاف
وألقي بها في جوف الخندق فسدته ثم دعا جيشه فعبّر عليها ، ورأى
أصحاب الحصن أنهم واقعون في قبضة البطل لا محالة ، فرفعوا راية
التسليم وقبل خالد توسلاتهم ، فحملوا أبوابهم على النجاة من يوم كيوم
« أليس » المروع ؟ •

وما ان فرغ خالد من الأنبار حتى جاءته العيون تخبره بأن فريقاً
من عرب الفرس بقيادة « عقة بن عفة » يحتشدون له في « عين النمر »
حشوداً لا قبل للمسلمين بها منهم فرسان « تغلب » و « أباد » وأصحاب
المتنبئة « سجاح » وكانت سجاح هذه امرأة تشتغل بالكهانة ، ثم ادعت
النبوة كما ادعاه زميلها « مسيلمة » ثم ارتضته بعلا وبقيت معه في بنى
حنيئة قومه أشهراً معدودات ، ولكنها سرعان ما هجرته الى مسقط رأسها
لتنفرد بالزعامة لنفسها •

ويدل مجرى الحوادث على أنها كانت تنشر دعوتها بايحاء من الفرس.
لتحريض العرب على الدين الجديد ، وقد نجحت في دعوتها بعض الشيء ،
فالتف حولها الناس وكثر أتباعها وكان من رؤساء جندها « عقة » المذكور

الذى التقى به خالد من قبل فى اليمامة عندما كان يحارب المرتدين ويقاتل مسيلمة واتباع سجاح وقد ظفر بهم جميعا وشتت شمل « عقة » ورجاله فارتدوا فارين بصحبة زعيمهم الى حى بنى تفلج فى الشمال.

زحف خالد الى عقة فى (عين النمر) وفى معقله بالصحراء التقى به واتباعه ودار القتال بين الطرفين بصرامة وعنف ، وفى لحظة خاطفة ، أبصر خالد عدوه (عقة) وهو يقاتل كالشيطان على فرصة فقال لصحبه « اكفونا ما معه فانى حامل عليه بنفسى » وفى انطلاقة مروعة احتضنه وحمله أسيرا وهو لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربى بهذا الأسلوب العجيب فى كل قتال . وقد كان خالد يعمد اليه كلما بدا له أن يوجز فى الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيصيب ما أراد .

وتفرق بوقوع عقة فى قبضة خالد أنصاره ورجاله وسرعان ما تلقتهم سيوف المنتصرين ومن نجا منهم استسلم عن طوعية وكانوا جمعا لا يحصى منهم « أبو محمد بن سيرين » (مفسر الأحلام المعروف) والمحارب المقدام « نصير البكرى اللخفى » الذى يرجع نسبه الى قبيلة ربيعة العدنانية .

الفصل الثاني

مولد طفل

انضم نصير كما تقدم آنفا الى خالد وسرعان ماجذبه الدعوة الإسلامية ، فترك ماكان عليه من دين النصرانية أو المجوسية كما يقول بعضهم وأعلن اسلامه وأظهر من المواقف العظيمة والتفانى فى سبيل نشر الدعوة المحمدية ما جعل « خالدا » يكن له الحب ويجعله من رجاله الأحرار .

ومرت الأيام على نصير وهو مقيم فى وادى القرى (بين المدينة والشام) يشارك خالدا وصحابته فى ندواتهم الدينية وغزواتهم الحربية حتى اذا أقبل العام التاسع عشر الهجرى الموافق لسنة ٦٤٠ للميلاد فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب رزقه الله ولدا سماه « موسى » فنشأ هذا تابعا لأبيه مسلما صادق الاسلام ومؤمنا بالوحدانية لا يشق له غبار .

نشأ موسى وسط هذا العهد العمرى وتخلق بأخلاقه وتعلم الكتابة فاجاد النثر ونظم الشعر وحفظ القرآن والأحاديث ، وأصبح على دراية كبيرة بعلوم الشريعة ، فعد من التابعين الذين رووا الحديث على أحسن ما يرويه علماء عصره ، وكان ذلك مبعث فخر لوالده ، فلم يترك فرصة الا اصطحبه معه لزيارة أهل الصدارة وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومجالسة كبار الرجال وحفظه القرآن الكريم .

ولما بلغ مبلغ الرجال تفتحت عيناه على هذا الخلاف المدون فى كتب التاريخ والذى وقع بين الهاشمين والأمويين عقب مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ومحاربة بعضهم لبعض لارغام معاوية بن أبى سفيان عامل الشام على الاعتراف للامام على بن أبى طالب بالخلافة . فكان لهذا الصراع أثر كبير على نفسه بث فيه حب السلطان والتطلع الى السيطرة والنفوذ ، واورثه الصرامة والعنف فما كانت مناظر الدماء ترهبه ولم تكن كما يقول ابن خلدون للأرواح حساب عنده مادامت تحقق له ما يريد .

شاهد والده الذى كان وقت هذا الصراع من رجال معاوية «وقائدا لحرسه أنه قد تجنب الفتنة » ووقف على الحياد بين المتخاصمين ولم يقبل الخروج مع معاوية للقتال معه فى موقعة «صفين» ضد على ، وسمع معاوية يقول لأبيه : ما منعك من الخروج معى ولى عندك يد لم تكافئنى عليها ؟ . فقال نصير :

« لم يمكنى أن أشكرك بكفرى من هو أولى بشكرى منك » .

• فقال معاوية : من هو ؟ •

قال نصير : الله عز وجل •

فأطرق معاوية برهة ثم قال :

« أستغفر الله » وعفا ورضى عنه •

لم يعجب موسى موقف أبيه من تلك الأحداث الدامية التي اندلع أوارها في محيط المسلمين والتي تمخضت عن قتل سيدنا علي ومبايعة الناس بعد ذلك لمعاوية بالخلافة وكل يترقب سير الأمور بعين المغامر الجريء •

ولما مات والده ومعاوية وجدت نفسه الحبيس الفرصة للانطلاق نحو المشاركة فيما يجري بين المسلمين من أحداث ، فقد كان الحسين بن علي يقاتل أنصار الخليفة يزيد بن معاوية في نواحي العراق ، ليأخذ الخلافة لنفسه ، فعزم موسى بن نصير على الانضمام الى جانبه والقتال في صفوفه اذ وجد فيه أحقيته للخلافة خلفا لأبيه ، وما كاد يأخذ أهيمته لذلك حتى سرعان ما وصل اليه نبا مصرع الحسين بن علي يد رجال عبيد الله ابن زياد قائد جيش يزيد في الكوفة فعمه الأسى وازدادت نفمته على الأمويين ووقف مرغما ينتظر اتجاه التيار •

وبموت الحسين ازداد السخط على « يزيد » وحكومته ، ونقض أهل المدينة الطاعة وأعلن عبد الله بن الزبير بن العوام في مكة العصيان ، فاضطر يزيد الى محاربة الجميع وجرد عليهم جيشا كبيرا من أهل الشام بقيادة « مسلم بن عقبة » فأهدر الأرواح واستحل دماء صحابة رسول الله في موقعة « الحرّة » التي وقعت في أواخر سنة ٦٣ هـ (٦٨٣ م) • ولما أخضع أهل المدينة انطلق لاختضاع ابن الزبير في مكة ، ولكن المنية عاجلته في الطريق فخلقه « الحصين بن نمير السكوني » فوصل مكة في شهر المحرم سنة ٦٤ فوجد ابن الزبير قد تجمع لديه آلاف من الأنصار وعلى رأسهم أهل الضيعة بصحبته المختار بن أبي عبيدة الثقفي ، والحوارج الذين خرجوا على سيدنا علي يوم صفين (١) والذين قدموا من البصرة

(١) أبرز مبادئه الخوارج رأيهم في التحكيم بين علي ومعاوية فقالوا : أخطأ علي ، اذ حكم الرجال ولا حكم الا الله .. ثم كفروا بالخليفة عثمان والسيدة عائشة والحكيم عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري • وينادون بأن الخلافة من حق أي مسلم تتوافر فيه الشروط ، أما الشيعة فيقرون عليا ويعتبرون الخوارج خارجين عليه ويقولون بأحقية بالخلافة بعد الرسول الكريم ومن بعده ذريته •

لمؤازرة ابن الزبير وتوحيد الجهود ضد الأمويين ، فاضطر لمحاصرة مكة ، ولكن ابن الزبير صمد لهذا الحصار وقاتل الأمويين بشجاعة • واستمر الحصار قرابة شهرين وبينما عبد الله بن الزبير ينظم صفوفه استعدادا للمعركة الفاصلة اذ وصله في اليوم الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ١٤هـ نبأ وفاة الخليفة (يزيد) فوق الخبر على أجناد الشام وقوع الصاعقة فذب نفي نفوسهم الوهن ورأى قائدهم (الحصين) أن ينضم الى ابن الزبير فطلب مقابلته وعرض عليه حقنا لدماء المسلمين أن يبايعه ويخرج معه الى دمشق ليأخذ له البيعة من الجيش وأهل العقد ، وقال له :

« أنت اليوم أحق الناس بهذا الأمر • هلم فلنبايعك ثم اخرج معي الى الشام فان هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتحقق هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة » •

ولكن عبد الله داخلة الوسائس من هذا العرض وأبى الخروج بصحبته الى الشام لثلا يكون في ذلك مكيدة للايقاع به ، وحينئذ لم يجد الحصين مفرًا من العودة برجاله الى الشام •

وكان موت يزيد مشجعا للناقمين على الأمويين فقام أكثر من واحد يطالب بالخلافة لنفسه •

فبعد الله بن الزبير ماكان يرى جيش الشام يغيب عن بطاح مكة حتى قام يدعو لنفسه بالخلافة جهرا بعد أن كان يدعو لها سرا فبايعه أهل الججاز واليمن والعراق ومصر وخراسان •

ومعاوية الثاني بن يزيد نصبه الأمويون خليفة في دمشق خلفا لأبيه وبايعه أهل الشام •

والخوارج الذين عاونوا ابن الزبير ثم افترقوا عنه بعد موت يزيد للاختلاف معه في العقيدة والهدف انقسموا على أنفسهم « فالأزارقة » بقيادة « نافع بن الأزرق » أنشبتوا لأنفسهم دولة في اقليم فارس « جنوب البصرة » واتخذوا الأسمواز مقرا لهم • و « النجدات » بقيادة « نجدة ابن عطية » أقاموا باليمامة وأسسوا لهم فيها وفي البحرين وحضرموت دولة لاينازعهم فيها منازع •

وهناك فريق خامس وهم شيعة الامام علي وابنه « الحسين » الذين

عرفوا أول الامر بالتوايين والذين فارقوا ابن الزبير للاختلاف معه
أيضا استقروا بالكوفة بزعامة الصحابي « سليمان بن صرد الخداعي » ،
فلما قتل تولى قيادتهم « المختار بن عبيد الثقفى » وكان شعارهم
« يا لثارات الحسين ! » وأخذوا يكتلون انفسهم لمحاربة الجميع وازدادوا
فى عدوانهم للأمويين لأنهم كانوا فى نظرهم مفتصبين للخلافة من أصحابها
الشرعيين (آل طالب) وقتلة عميدهم الحسين رضى الله عنه .

الفصل الثالث

« بيعة مروان »

ومرت الأيام والدولة الإسلامية في شقاق شديد ، وسرعان
ما توفي معاوية الثاني بعد حوالي أربعين يوما من بدء خلافته وقيل ثلاثة
أشهر . وأعقب ذلك أن ازداد الانقسام بين المسلمين عن أيام أبيه يزيد
وساد الشام الحلاف وانقسم على نفسه :

ففرق فضل ان يبايع ابن الزبير وأخذ يتصل به .

وفريق يصير على بقاء الخلافة في البيت الأموي ومبايعة خالد بن
يزيد وكان خالد هذا حدث السن لم يبلغ سن الرجال بعد .

وظلت الحال على هذا المنوال حوالي ستة شهور ، وفي وسط هذه
الدائمة والحلاف المستحكم وصل الى دمشق « مروان بن الحكم » قادما من
الحجاز بصحبة عائلته للاقامة بالشام بعدما أخرجه الزبيرون من المدينة
فوجد القوم مختلفين مترددين لم يستطيعوا أن يقطعوا بأمر ، فراودته
نفسه بالرحيل ثانيا الى المدينة ومبايعة ابن زياد والى العراق هاربا من
اهل البصرة الذين نقضوا طاعته عقب موت يزيد والذي يعده التاريخ
المستول الأول عن مقتل الحسين ، وسرعان ما اجتمع الشيخ مروان مع
نخبة من كبار بنى أمية وعمر بن سعيد بن العاص . وحينئذ بدأت
الأمور تجرى في غير الطريق الذي رسمه مروان لنفسه ، لقد استنكر
القوم ما عزم عليه مروان من الذهاب الى الحجاز ومبايعة ابن الزبير وقال
له زياد :

« قد استحييت لك ما تريد أن تصنعه ، أنت كبير قریش وسيدها
نمضى الى أبى خبيب (يعنى ابن الزبير) (١) فتبايعه ؟ • أنشدك الله
ألا تفعل ، فأنت أولى بها منه » .

ثم قال زياد : أن تنهض وتدعو لنفسك وأنا أكفيك قریشا ومواليها
فلا يخالفك منهم أحد .

ثم أعقبه عمرو بن سعيد بن العاص فقال لمروان :

(١) كان ابن الزبير يكتى أبى خبيب وأبا بكر وأبا عبد الرحمن ولم يكن يكتيه بأبى
حبيب الا من اراد ذمه .

« صدق عبيد الله : أنت شيخ قريش وسيدها وانت أحق الناس بالقيام بهذا الأمر » .

وسكت القوم وسرح مروان بفكره قليلا ، ثم انفرجت أسارير وجهه والتفت الى المجتمعين وقال : « ما فات شيء بعد » وكررها مرة أخرى . وكانت هذه الجلسة بدء حياة جديدة لمروان أنسته ما كان قد عزم عليه من الرحيل الى المدينة ، وبدأ يستعد للعمل لمبايعة الناس له بالخلافة .

ونهض الجماعة ونشروا الدعوة للشيخ ، وكان أول من استجاب لمبايعة مروان أهل الأردن لأنهم أبوا أن يبايعوا من قبل خالد بن يزيد لصغر سنه وقالوا قولتهم المشهورة « اننا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي » وهم يعنون بذلك أن المسلمين في الحجاز والعراق قد بايعوا شيخا كبيرا هو ابن الزبير على حين كان يراد منهم أن يبايعوا صبيبا هو خالد أو شقيقه عبد الله ، لذلك كانت فكرة ترشيح مروان للظلالفة قد نالت منهم موافقة في التو لكبر سنه التي تعادل سن ابن الزبير .

وقررت الأحزاب المتنافرة بزعامه الضحاك بن قيس أمير دمشق الذي كان يدعو لابن الزبير ، وحسان بن مالك رئيس القبائل اليمنية وأمير فلسطين والأردن وقبيلته أخوال يزيد بن معاوية أن ينظروا في الأمر في اجتماع يعقدونه في « الجابية » (بين الأردن وفلسطين) ، واستمر الاجتماع منعقدا أربعين يوما برياسة حسان بن مالك . كانت المناقشة وتبادل وجهات النظر تتم فيه بحرية ، وكان المجتمعون يتشاورون ويتناقشون ولا ينفون سوى أن يصلوا الى قرار يحسمون به الخلاف ويردون للأمة وحدتها تحت زعامة رجل ذي كفاية بصرف النظر عن يستحقها بحكم الإرث ما دام في ذلك صون لكلمة المسلمين وحفظ لكيانهم من الضياع : مثال ذلك ما جرى بين « مالك بن هبيدة » الذي يدعو لمبايعة الصبي خالد بن يزيد وبين « الحصين بن نمير » الذي مر بنا ذكره والذي يأبى الدعوة له وهما قائدان بارزان في قومهما لهما من الكلمة ما يجعل القوم يعملون لهما ألف حساب ، وكانا ينتميان لعشيرة واحدة . إذ قال الأول للآخر :

« هلم فلنباع لهذا الغلام فقد عرفت كيف كانت منزلتنا من أبيه فإنه يحملنا على رقاب العرب غدا . »

فقال الحصين :

« لا لعمر الله لا تأتينا العرب بشيخ (يعنى ابن الزبير) ونأتيهم بصبي ! » .

فرد مالك بقوله :

« والله لئن استخلفت مروان وآل مروان ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها ! ان مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة فان بايعتموه كنتم عبيدا لهم ! » .

فقال الحصين :

« مروان شيخ قريش والمطالب بدم الخليفة المظلوم (يعنى عثمان) وهو يدبرنا ويسوسنا ولا يحتاج الى أن نديره ونسوسه وغيره يحتاج الى أن يدبر ويساس (يعنى خالدا) .

ثم قص عليه حلما رآه وهو أنه شاهد قنديلا متديلا من السماء . وان من يتناوله يلى منصب الخلافة ، وقد شاهد مروان يتناوله ، لذلك أصر على رأيه وقال لابن هبيرة : « والله لنستخلفنه » .

وقد رأى ابن هبيرة فى ذلك نعم الصواب فهذأت ثأثرته ووافقته على رأيه .

ومثال آخر من المناقشة الفريدة فى نوعها فى ذلك العصر . فقد وقف « ابن عضاء الأشعري » يقول لحسان بن مالك الذى يصر على مبايعة خالد :

« أراك تريد هذا الامر لخالد بن يزيد وهو حدث السن ! »

فرد حسان بقوله :

« نعم انه معدن الملك ومقر السياسة والرياسة » .

ولما رأى ابن عضاء اصرار حسان على رأيه التفت الى نفر من امضاء المؤتمر وقال لهم :

« هلموا معى لنرى ماذا يفعله هذا الحدث السامة » .

ثم سرعان ما انطلق بهم الى حيث كان يقيم خالد « فوجدوه نائما متصبحا » .

نقال لهم ابن عضاه :

« يا قوم انجعل تحورنا أغراضا للأسنة والسهوم بهذا الغلام وهو نائم في هذه الساعة وانما صاحب الامر المجد المشمر الحازم المتيقظ ؟ »

وتركوا الصبي مستغرقا في نومه واتجهوا الى منزل مروان ليروا ماذا يفعل . قدخلوا عليه فاذا « فسطاط له ، واذا درعه الى جانبه ، والرمح مركوز بفنائه وجواده مربوط الى جانب فسطاطه . والمصحف بين يديه وهو يقرأ القرآن ، فقال ابن عضاه :

«أرايتم يا قوم ؟ هذا صاحبنا الذي يصلح له الامر وهو ابن عم عثمان أمير المؤمنين وشيخ قريش وسيدها ! »
فقالوا له :

« حقا ما ترى » .

ثم رجعوا الى الاجتماع واطلعوا حسانا على ما شاهدوه وشفعوا قولهم بأنهم يرون أنه لا يصلح لهذا الامر سوى مروان ، وعندئذ رد عليهم حسان بقوله :

« رأيي لرايكم تبع ، انما كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن الزبير وتخرج من آل هذا البيت » .

وهكذا كانت الروح المسيطرة على الاجتماع ، الروح التي تبغى قبل كل شيء توحيد الصفوف ليس فيها شيء من التعصب الكريه سوى التعصب لمن يقود الجماعة الى ما فيه سعادتها وصلاحها . ومن ذلك انحسم الامر وتمت المبايعة لمروان في يوم الاربعاء الثالث من ذي القعدة عام ٦٤هـ (٦٨٤ م) . وانفض الاجتماع وخرج الجميع والرضا بفرهم جميعا لوصولهم الى ما انهى الازمة وحفظ الكلمة وصان الامة من التفرق والتمزق .

ومما يذكر ان أعضاء المؤتمر لم تكن مناقشاتهم تدور حول خالد ومروان وايهما أصلح للخلافة فقط ، وانما تعرضوا الى ترشيح بعض كبار العرب لهذا المنصب ومن هؤلاء « عبد الله بن عمر بن الخطاب » فقد وقف في اثناء المناقشات « روح بن زنباع » الذي تولى ادارة فلسطين خلفا لحسان بن مالك يرد على بعض المؤيدين لابن عمر بقوله :

« ايها الناس ، انكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته

من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدمه في الاسلام - وهو كما تذكرون - ولكن ابن عمر رجل ضعيف وليس بصاحب امة محمد الضعيف .

ثم بدا بعد ذلك يرد على المؤيدين لابن الزبير بقوله :

« وأما ما يذكر الناس عن عبد الله بن الزبير ويدعون له فهو - والله - كما يذكرون انه ابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن اسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين وهو - بعد - كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفته: يزيد وابنه معاوية ، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين وليس صاحب امر امة محمد المنافق .

ثم ختم مناقشته بطلب البيعة لمروان ذاكرا مزاياه وقوة شخصيته التي تؤهله للزعامة بقوله :

« وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الاسلام صدع قط الا كان مروان ممن يشعب هذا الصدع ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذي قاتل على بن أبي طالب يوم الجمل (١) وأنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويتركوا الصغير . » (يعنى بالكبير مروان وبالصغير خالدًا) .

ثم فارق المنبر وترك الامر للمجتمعين يتداولون فيه ، وما كاد يجلس مكانه حتى وقف ممثلو الاردن والتفتوا الى مروان وقالوا له :

« أنت شيخ كبير وابن يزيد غلام وابن الزبير كهل ، وإنما يقرع الحديد بعضه ببعض فارم بتحريك في نحره ، أبسط يدك نبايعك ، فبسط يده ، فكانوا أول من بايعوه « كما سبق القول » .

ولما فرغوا من بيعتهم وقف حسان في المجتمعين وقال بعد أن حمد الله وشكره :

« ان مروان هو كبير قريش وابن عم الخليفة المظلوم والمطالب بدمه قبل الناس أجمعين فبايعوه - رحمكم الله - فهو أولى بمراث

(١) هي المعركة التي دارت بين الامام علي ومعاوية وكانت السيدة « عائشة » تؤيد فيها معاوية وقد سقط فيها جملها في أثناء القتال فسميت بمعركة الجمل .

عثمان واحق بالامر من النكاث ابن الزبير الذى خلع الخلافة وجاهر
بالمعصية « فسارعوا الى بيعته » .

وسرعان ما ارتفعت الألسن مرددة البيعة لروان .

وهكذا تمت البيعة لشيخ قريش وبدأت دولة آل مروان تأخذ
مكانها فى التاريخ .

وقبل أن يفادر القوم مكانهم قرروا اعلان الحرب على أنصار ابن
الزبير الذين تجمعوا فى « مرج راهط » بجوار دمشق بزعامة « الضحاک
ابن قيس النهري » .

الفصل الرابع

حيرة موسى

شاهد موسى بن نصير تلك الأحداث التي أخذت من تفكيره الكثير
وتحير في أي الفريقين كان على حق :

ابن الزبير وشيعته ومروان وأنصاره .

وفجأة وجد نفسه يعيش بأفكاره بين عاملين :

عامل يدفعه للقتال لنصرة ابن الزبير للانتقام من قتلة الحسين الذي
حز في نفسه استشهاده على تلك الصورة البشعة من قطع رأسه وتنكيث
ابن زياد له بعصاه .

وعامل آخر يجتذبه نحو آل مروان نظرا لأنهم لم يشتركوا في هذا
الحادث المثير الذي وقع ومروان وأولاده في الحجاز فهم في نظره أبرياء من
دم الشهيد .

ونظرا لصداقته الوطيدة التي كانت تربطه بابن الخليفة الجديد
(عبد العزيز بن مروان) الذي كان يقاربه في السن ويتجاوب معه في
المشارب وحب المغامرات ويعنى نفسه بصحبته بتحقيق ما يصبو إليه
من آمال .

كان هذان العاملان هما شغله الشاغل لا ينفصلان عن تفكيره دائما
في الحل والترحال .

ومرت الأيام ومضى علىبيعة مروان نحو الشهرين وفي أثنائها
شاهد موسى جيوش الروائيين تتأهب لخوض المعركة الفاصلة مع أنصار
ابن الزبير في مرج رهط .

وفي إحدى الليالي بات موسى وأصبح فإذا هو قد عزم على الانضمام
إلى صفوف الضحك ضد آل مروان مضحيا بصداقته لابن الخليفة
وبأمانيه التي كان يربط تحقيقها على يديه ومن ثم انطلق من منزله حاملا
درعه وسيفه ، وغادر دمشق في مطلع الفجر وسرعان ما أخذ مكانه في
صفوف أنصار ابن الزبير في مرج راهط .

الفصل الخامس

موسى في الاسر

اجتمع لكل من الفريقين المتخاصمين نحو « اثني عشر ألفا » من الموالين والانصار : فجيش الضحاك يضم قبائل قيس اليمنية بفروعها المختلفة ، وجيش مروان يضم قبائل كلب فجعل على ميمنتهم عمرو بن سعيد بن العاص ، وعلى ميسرتهم عبيد الله بن زياد الطافية ، واختص نفسه وحسان بن مالك بمقام القلب ، اما الضحاك فقد جعل على ميمنته المدد الذي بعث به النعمان بن بشير الانصارى عامل حمص ، وامر عليه موسى بن نصير حتى يواجه خصمه اللدود المسئول الاول عن قتل الحسين ، ثم جعل على ميسرته رجال زفر بن الحارث والى قنسرين ، وقيل ان زفر حضر على رأسهم ، ثم وقف الجيشان وجها لوجه استعدادا لخوض المعركة .

وقبل اشعال نارها بعث مروان في اوائل المحرم سنة ٦٥ هـ (٦٨٤م) فرقة من قبائل غسان لانتزاع دمشق من رجال الضحاك وقد نجحت في الاستيلاء عليها وعلى ما فيها من اموال وسلاح ، فكانت هذه المعركة فاتحة النصر لمروان بثت فيه الثقة بالفوز وامتدته بعتاد ومدد نفعاه بان يقرر في الحال خوض المعركة بينه وبين الضحاك ، وسرعان ما هجم برجاله نحو خصمه وتصافت السيوف واشتبكت السواعد ودام القتال بعنف وامتلا الميدان بالوف من القتلى ذهبوا ضحية الشقاق والخلاف ! واستمر الصراع قائما ليل نهار لمدة عشرين يوما اظهر اليمينيون فيه وعلى رأسهم موسى بن نصير بطولة اخاذة . ثم تمخض اخيرا عن هزيمة الضحاك وأنصاره هزيمة مروعة . وكان من سوء حظه ان وقع أسيرا في يد أعدائه فقطعوا رأسه وجاءوا بها لمروان ، فتأثر عند رؤيتها وقال ما معناه : « الآن حين كبرت سسني ودق عظمي ولم يبق من عمري الا القليل وأقبلت الكتائب أضرب بعضها ببعض ! » .

وبقتل الضحاك تفرقت شيعته وانصار ابن الزبير فهرب زفر بن الحارث الى احدى مدن نهر الفرات شمالي الجزيرة وتحصن بها واقسم ليكون شوكة في ظهر آل مروان وزمرتهم وعلى رأسهم حسان بن مالك وقال في ذلك قصيدته المشهورة التي جاء فيها :

أربني سلاحي لا أبالك انني
أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

لعمرى لقد أبقت وقية راهط لحسن صدعا بيننا متائباً

وقد بر الرجل بقسمة فبقي سبعة أعوام يهدد جيوش الروانيين الزاحفة من الشام لاختضاع العراق حتى اذا كان عام ٧١هـ (٦٩٠ م) في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي تولى الامر بعد أبيه سنة ٦٥هـ زحف اليه جيش عبد الملك ، وظل يحاصره أربعين يوماً وبذلك أسوار حصنه بالمنجنيقات الى ان تفاوض عبد الملك معه على الصلح وبذلك أمكن عبد الملك أن يوجه جهوده لبيسط سلطانه على العراق كله وانتزاعه من يد « مصعب بن الزبير » أخى عبد الله بن الزبير كما هو مبين بعد .

هذا ما كان من أمر زفر بن الحارث وخاتمته أما زملاؤه القواد الثلاثة الذين أيدوا الضحك معه فحينما رأوا الهزيمة وبلغهم خبرها خرج أولهم « النعمان بن بشير » متسللاً في وقت السحر هارباً ، ولكن سرعان ما أدركه « خالد الكلاعي » أحد أنصار مروان خارج المدينة فقتله (١) .

وأما ثانيهم « نائل بن قيس الجذامي » فقد استطاع الفرار واللاحق بابن الزبير .

وأما ثالث الثلاثة « موسى بن نصير » فقد هام على وجهه يضرب في الأرض ما يكاد يستقر في مكان يختبئ فيه حتى سرعان ما تجنّبه الأنبياء بأن عيون مروان في طريقها اليه للقبض عليه فيفادره في التو .

ولما ضاقت به السبل بعث يستجير بصديقه عبد العزيز بن مروان ويرجوه في التوسط لدى والده في العفو عنه ، فلما جاءه رسول موسى يطلب منه أن يجيره فرح للنبا وهلل له وذهب مسرعاً الى أبيه يطلب الأمان لموسى ، وقد كان له ما أراد فاستجاب الوالد لرجاء الابن ، وحضر موسى وقبل يد الخليفة وأقسم ليهب عمره في خدمة آل مروان ونصرتهم ، وقد وفي موسى بيمينه ، فظل يسير في ركاب الروانيين يفتح

(١) مما يذكر أن النعمان هو الذي انطلق من المدينة حاملاً قميص عثمان مشغوباً بالدم بعد قتله وسلمه لمعاوية وقد استغل معاوية هذا القميص ونشره على المنبر وجمع الناس لرؤيته ليحرضهم على قتال الإمام علي ، وقد فعل هذا القميص في نفوسهم ما لم تفعله أعظم الدعايات اثرأ وأقسموا الا يسهم الماء الا للفصل من الجنباء . والا يناموا على الفرش حتى يقتلوا كل من شارك في قتل عثمان .

لهم الأقطار والامصار ويوسع في رقعة سلطانهم الى أن بلغ الثمانين من عمره .

ومكث موسى ملازما لصديقه ومولاه عبد العزيز لا يفارقه ليل نهار وأبدى من الولاء لبیت مروان ما استرعى انتباه الخليفة «ومن جاء بعده فقربوه اليهم » وظلوا يرفعون من مكانته يوما بعد يوم حتى أصبح من رجال الدولة المعدودين وحكامها البارزين .

الفصل السادس

موسى المستشار

استقر الامر لمروان في الشام عقب موقعة مرج راهط ، ثم بدأ بعد ذلك يستعد لمنازلة ابن الزبير وتوحيد البلاد الاسلامية كلها تحت سلطانه . وكان أن اعد جيشا كبيرا بقيادة عبيد الله بن زياد لاختضاع الجزيرة والعراق . وسار الجيش في ربيع الآخر سنة ٦٥هـ ، وما كاد مروان يفرغ من ذلك حتى وفد عليه جماعة من اهل الصدرة في مصر ، جاءوا يحملون معهم رغبات اهلها لمبايعته وخلع طاعتهم لابن الزبير ، فرحب بهم وامر في التو بتجهيز الجيش للمسير به نحو مصر ، وزحف الجند مسرعين تتقدمهم الطلائع بقيادة ابنه عبيد العزيز وموسى بن نصير .

وبعد مسيرة عدة ايام وصلت المقدمة الى منطقة عين شمس ، ثم سرعان ماوافاها مروان ، وكان وصوله في الاول من جمادى الاولى سنة ٦٥هـ (٦٨٥ م) .

وبينما هو يسرع في الزحف في سهول الريمانية اعترض طريقه جيش «عبد الرحمن بن عتبة الفهري» عامل مصر من قبل ابن الزبير . فاشتبك معه في قتال لم يدم طويلا . اذ كانت الكفة فيه راجحة لمروان ، فاسرع ابن عتبة في طلب الصلح وتسليم البلاد له على أن يؤمنه على نفسه ويتركه يلحق بابن الزبير دون أن يعترض طريقه ، فقبل مروان ، وبذلك دانت مصر للمروانيين .

ومكث مروان بمصر الى الاول من رجب من العام نفسه يرتب امورها وشئونها ويظهرها من فلول اعدائه ، ولما فرغ عزم على الرحيل الى دمشق ، وقبل سفره عين ولده عبد العزيز واليا عليها ثم جعل موسى بن نصير مستشاره ووزيره الاول في مملكته الجديدة .

وصماه بالتقوى والعدل بين الرعية حتى يكسب عطف الجميع على اختلاف طبقاتهم وملتهم وأن يأخذ بمبدأ الشورى في كل امر يبرمه ، وقد حوت هذه الوصايا التي زود بها مروان ابنه وبعث ببعضها اليه بعد ذلك اسمى المبادئ المتحضرة التي تشهد للعرب بسمو الحكمة والمعرفة التامة باصول الادارة وقنون السياسة . انظر وهو يقول له :

« يا بني ، عمهم باحسانك يكونوا كلهم بنى ابيك ، واجعل وجهك

طلقا تصف لك مودتهم ، وأوقع الى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عوناً لك على غيره ويتقد قومه اليك ، وقد جعلت معك أخاك « بشراً » مؤنساً ، وجعلت لك « موسى بن نصر » مشيراً ووزيراً ، وما عليك يا بنى إلا أن تكون أميراً بأقصى الأرض ؟ اليس ذلك أحسن من اغلاقك بابك وخمولك في منزلك ؟ »

وفي وصية ثانية :

« أوصيك بتقوى الله في السر والعلانية وبالبر بالفقراء وأنجز الوعد وأن تكون المشورة رائدك قبل الفصل في أمور الدولة . وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء لك وتأمين الثغين والقلاقل » .

أما وصيته الثالثة التي وصاه فيها باعطاء كل ذي حق حقه ومصاحبة أهل الفضل واستشارة أهل العلم ، ونهاه فيها عن الكذب فقد جاء فيها :

« انظر - أي بنى - الى أهلك وعملك فان كان لهم عندك حق.. غدوة فلا تؤخره الى عشية . وان كان لك عشية فلا تؤخره الى غدوة وأعظم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيك منك كذب . فانهم أن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق واستشر جلساءك وأهل العلم . فان لم يستبين لك فاكذب الى يأتاك رأى فيه ان شاء الله . وان كان بك غضب على أحد من رعيك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم انظر الى أهل الحسب والدين والمروءة ليكونوا أصحابك وجلساءك .. ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم ، أقول هذا واستخلف الله عليك » .

وقد عمل عبد العزيز بتلك النصائح الغالية فالتفت حوله الجميع وأحبه أهل اللفة وقد بالغ في العطف عليهم وأقرار ما لهم من حقوق ، وقبل أن يجعل من حلوان مقراً دائماً له في سنة ٧٣هـ (٦٩٢ م) اتخذ من أحد أديرتهم في مدينة « طمويه » التي على النيل محلاً لاقامته ودفع لأصحابه من الرهبان ثمناً له أكثر من « عشرة آلاف جنيه » ليكون مثلاً يحتذى فلا يقدم أحد من الرعية المسلمين على اغتصاب ممتلكاتهم . وزاد في عطائه لمختلف الطبقات حتى أطيب المؤرخون فيما قدمت يداه من أعمال البر والاحسان فقال بعضهم : « انه كان له ألف جفنة تنصب حول داره ، ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر وفي ذلك يقول الشاعر :

كل يوم كأنه يوم ضحى
عند عبد العزيز أو يوم فطر

وله الف جفنة مترعات
كل يوم تمدها الف قدر

ومكث عبد العزيز واليا على مصر لمدة عشرين عاما وعند موته بكاه
الجميع ورثاه الشعراء ابغ رثاء وقال فيه الشاعر سليمان بن أبال
الانصارى :

فمن الذى يبني المكارم والعللا
ومن ذا الذى عندى له بعدك الشعر

فكنت حليف العرف والخير والندى
فعتن جميعا حين غيبك القبر

عاش موسى في كنف عبد العزيز فكان صديقه المخلص ومستشاره
وزيره الأول ووصيفه المقدم على من عداه من رجال الصدارة فأتبع
له بذلك أن يتمرس على إدارة الحكم بمشاركته دائما في شئون الدولة،
كما ساعده مركزه على مصاحبة العلماء والأخذ بعلومهم والاستماع الى
مختلف الشعراء الذين كانوا يهرعون الى عبد العزيز لمدحه والاشادة
بال مروان ، فانسعت مداركه وارتقى اطلاعه ، وبهذا جمع بين رغبته
في متابعة العلم الذى كان يتعشقه وهويته في الضرب في غمار السياسة
مما دفعاه الى التطلع الى نصيب أوفى من الحكم المستقل حتى يكون له
مثل ما لولاه عبد العزيز من الجاه والسلطان ، وظل في مكانه يترقب
الفرص ، فقد كان مبدؤه الذى سمعه من سيدنا على بن أبى طالب
« انتهبوا الفرص فان الفرصة تمر مر السحاب » .

الفصل السابع

موت مروان وتولية عبد الملك

مات الخليفة مروان بن الحكم في الاول من رمضان سنة ٦٥ هجرية
الموافقة لسنة ٦٨٥ م تاركا الامر لابنه عبد الملك ليقود المسلمين الى
طريق الوحدة ويخضع طلاب الفرقة والانقسام .

واستفتح عبد الملك عهده بالموافقة على ما اقره والده من قبل
من ارسال الجيش الذي كان قد أعده بقيادة «حبيش بن دلجة القيني»
لاخضاع الحجاز والقضاء على ابن الزبير .

وقد استطاع هذا الجيش أن ينتصر على طلائع ابن الزبير ويحتل
مدينة الرسول الكريم في اوائل رمضان من العام نفسه ثم اعتلى
«حبيش» منبر النبي عليه صلوات الله وخطب في الناس خطبة
تهديدية عنيفة حمل فيها على أهالي المدينة لعدم مناصرتهم الخليفة
عثمان وخذلانهم اياه .

ولما علم بقدوم الجيوش القادمة من البصرة لمعاونة ابن الزبير ضده
اسرع بالخروج من المدينة ليتلاشى الحرب في جبهتين : جبهة المدينة
وسكانها الذين يتمنون هلاكه ، وجبهة الانجاد الزاحفة لمقاتلته والقضاء
عليه ، وفي مكان يسمى « الربرة » من ضواحي المدينة وهو الموضع
الذي نفى فيه الخليفة عثمان « ابا ذر الغفاري » الاشتراكي العظيم (١)
والذي ظل فيه الى أن لقي ربه . وقف «حبيش» ينتظر لقاء خصومه .
ولم يطل به الوقت فسرعان ما التقى بهم ، وبعد صراع مرير دارت

(١) كان أبوذر في الشام يحرض الفقراء على طلب حقوقهم من الاغنياء ، وقد تخوف
الاغنياء من تلك الدعوة الاشتراكية فشكوه الى معاوية فنهاه معاوية عن ذلك فلم يئنس
فكتب معاوية الى عثمان : « انك قد أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر » فرد عليه
عثمان بأن يرسله اليه ، وذهب أبو ذر الى المدينة ثم خرج منها ليقسم في الربرة على
بعد ثلاثة أميال من المدينة ومكث بها الى ان مات .

الدائرة على جيش المروانيين وقتل «جيش» تحت سناك الخيل
ودخل المنتصرون مدينة يشرب بين التهليل والتكبير وفرحة أهلها .

وحاول عبد الملك أن يعيد الكرة في العام التالي فبعث جيشا آخر
بقيادة ابن عمه عبد الملك بن الحارث ، ولكن محاولاته ذهبت سدى .

ولما أميته بالحيلة وجه همه الى العراق للقضاء على انصار ابن
الزبير . ومقاتلة الشيعة وزعيمهم المختار بن ابي عبيد الدين تكتلوا ليأخذوا
بشار الحسين رضى الله عنه ومقاتلة كل من اشترك في مصرعه وحرص
عليه .

الفصل الثامن

مصرع قتلة الحسين

سار جيش عبد الملك نحو العراق بقيادة « ابن مرجانة عبيد الله ابن زياد » وأمكنه في أول جولة له أن ينتزع الموصل من عامل المختار .
واخذ يستعد للرحف جنوبا :

وطار النبا الى المختار في الكوفة فأسرع بإرسال ثلاثة آلاف محارب بقيادة « يزيد بن أنس الاسدي » وفي مكان قرب الموصل التقى الشيعة بخصومهم وكانوا « ستة آلاف » من فرسان الشام والتحم الفريقان في صباح وقفة عرفات سنة ٦٦هـ ومكث القتال عدة أيام ، وأخيرا انجلي عن هزيمة جند الشام . وعقب هذا النصر الشيعة وقف المختار في أسرى خصومه يهددهم ويتوعددهم أن لم يدلوه على من شارك من بينهم في قتل الحسين وقال لهم :

« انظروا من شهد منكم قتل الحسين فأعلموني » وسرعان ما دله البعض على الكثير ممن لوثوا أيديهم بدم الشهيد ، فأمر بضرب أعناقهم جميعا ثم نادى في الناس قائلا :

« ما من ديننا ترك قتلة الحسين أحياء في الدنيا آمنين ، بئس ناصر محمد أنا أذن الكذاب (١) - كما أسموني ، وأنا أستعين بالله عليهم ، فسموهم لي ثم اتبعوهم حتى تفنؤهم ، فاني لا يسوغ لي الطعام ولا الشراب حتى أظهر الأرض منهم » .

وقد وفق الله الرجل فاهتدى الى كل من شاهد وشارك في قتل الحسين وعلى رأسهم « شمر بن ذي الجوش » أول من حمل على الشهيد . وقد قبض عليه في قرية « سسادماء » وقيل أنها « المذار » قرب البصرة وقتله المختار وبعث برأسه الى محمد بن الحنفية بالمدينة . ومكث المختار بجدة في أثر كل مذهب حتى أمكنه أن يبلغ مآربه ، ولكن بقي عليه أن يتمكن من ابن زياد المحرض الاول على قتل الحسين ، وكان أن جهز جيشا ضخما بقيادة « ابراهيم بن الأشتر » لقتاله .

وسار الجيش الى الموصل وفي الطريق انضم اليه رجال القائد .

(١) لقب بالكذاب لتزويره كتابا ونسبه الى محمد بن الحنفية أخى الحسين وعرضه على القبائل لتأييده ضد الروائيين وقد انكشف أمره .

الشيعة « يزيد الاسدي » الى ان بلغ نهر الخازر من فروع نهر دجلة فحط رحاله ، وسرعان ما اقبل جيش الشام بقيادة « الحصين بن نمير السكوني » يعاونه « ابن مرجانة » و « شرحبيل بن ذي الطلاع الحميري » . وهم ممن شاركوا في قتل الحسين ، فنزلوا قريبا من موقع خصومهم على شاطئ النهر .

وقف الخصمان وجها لوجه وكان على ميمنة جيش الشام « الحصين » وعلى يسرته « عمر بن الحباب » وقى القلب ابن زياد وشرحبيل . قائد الخيل .

وعندما اشرق صباح يوم عاشوراء من المحرم سنة ٦٧ هـ (٦٨٦ م) وقف ابراهيم بن الاشرع يعرض الشيعة بقوله :

« يا انصار الدين وشيعة الحق وشرطة الله ، هذا عبيد الله بن مرجانة قاتل الحسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله - الذي حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه (١) وهم ينظرون اليه ومنعه أن يأتي ابن عمه فيصالحه ، ومنعه أن ينصرف الى رجله وأهله ، ومنعه الذهاب في الأرض العريضة (٢) حتى قتله وقتل أهل بيته ، فوالله ما عمل فرعون بنجباء بنى اسرائيل ما عمل ابن مرجانة بأهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا - قد جاءكم الله به وجاءكم بكم ، فوالله اني لا ارجو الا يكون الله جمع بينكم في هذا الوطن وبينه الا ليشقى صدوركم بسفك دمه على أيديكم فقد علم الله انكم خرجتم غضبا لأهل بيت نبيكم » .

ولما فرغ من تحريض رجاله أمر بالهجوم على الروائيين قبل أن يهاجموه ، ودارت المعركة بالقرب من نهر الخازر . وحمل ابن الاشرع

(١) كان الحسين قبل مقتله قد أحس بالعطش فطلب الماء ، وبينما يهيم بشربه رماه الحصين بن نمير بسهم فسقط قدح الماء من يده ، فاتجه نحو الفرات ليشرب فحال الخصوم بينه . ثم فاجاه سنان النخعي بطعنة من رمح ، وتبعه شبل الاصبغ فحر رأسه ثم حمله الى ابن زياد فنكت ثانيا الشهيد بمصاه !

(٢) لا خلل المراقبون الحسين وتخلوا عنه عرض على ابن زياد أن يتركه يذهب الى مكة ، أو يذهب يسير الى يزيد ليفاوضه أو يرحل الى بلاد بقية المسلمين . ليجاهد معهم ، ولكن ابن زياد أمر على استسلامه أو بقتاله .

على مسيرة ابن زياد حملة عنيفة ، ثم وجه ضرباته كذلك ناحية القلب ،
وعند مغرب الشمس انهزم جند الشام وقتل جميع قوادهم الحصين.
وشرحبيل وغيرهما ، وفي الصباح قال ابن الاشر لصحابه : «انى قتلت
في الوقعة رجلا من اهل الشام كان يقاتل في اوائلهم قتالا شديدا وهو
يقول : انا الغلام القرشى ، فلما سقط شمت منه ريح المسك فاطلبوه
بين القتلى .. »

وكان هذا القتل هو ابن زياد وجده رجال ابن الاشر ملقى تحت
راية منفردة على شاطئ النهر وقد شرقت يدها وغربت رجلاه ..
فجاءوا به لزعيمهم فحز رأسه ، وبعث به الى المختار وهذا أرسله الى
محمد بن الحنفية . أما جثته فقد أحرقت وذراها الرياح .

وقد مدح الشعراء ابن الاشر بانتصاره وأنشده شاعره «عبد الله
ابن عمرو» قصيدة أشاد فيها بفوزه جاء في أولها :

الله أعطاك المهابة والتقى
وأحل بيتك في العديد الاكثر

واقر عينك يوم وقعة خازر
والخيل تعثر بالقنا المتكسر

وهكذا أراد الله ان ينتقم من قتلة الشهيد ، فقتلوا جميعا في مثل
اليوم الذى لقي فيه استشهاده منذ حوالى خمس سنوات وسبعان
المنتقم الجبار .

الفصل التاسع

مصرع المختار

ثم اعقب ذلك أن افتضح أمر المختار وظهر أنه كان يدعو لنفسه لاقامة دولة له في العراق ، وأنه اتخذ الدعوة للثأر من قتلة الحسين ليحقق من ورائها أغراضه الدنيوية ، فانفضت القبائل من حوله وارتعت في أحضان مصعب بن الزبير وإلى البصرة من قبل أخيه ، فهب مصعب للقضاء عليه في الكوفة وعبر نهر دجلة . وبلغ المختار ذلك فأسرع لملاقاته وعند نهر « البصريين » تقاتل الطرفان ، وكانت القلب لمصعب فولى المختار هارباً نحو الكوفة ، وتحصن في قصر الإمارة فحاصره مصعب مدة أربعين يوماً ، ولما ضاقت الحال بالمختار من شدة الحصار بدأ يفصح عن نيته لأول مرة فقال لأحد خاصته ما معناه : لعمري ما كان إلا لطلب دنيا فإني رأيت عبد الملك بن مروان قد غلب على الشام ، وعبد الله بن الزبير على الحجاز ومصعباً على البصرة ، ونجدة الحروري على العروض، وعبد الله بن خازم على خراسان ونست بدون واحد منهم ، ولكن ماكنت أقدر على ما أردت إلا بالدعاء إلى الطلب بثأر الحسين .

وهكذا كشف الرجل القناع ، ثم أسرع وامتطى فرسه ولبس درعه واتجه نحو باب المدينة وهو يقول : « قبح الله العيش بعد ما أرى » وما كاد يصل بأصحابه إلى البوابة حتى صرخ في الحارس قائلاً « افتح يا بواب » .

وانفتح الباب وسرعان ما انطلق بفرسانه وواجه خصومه وظل يكر ويفر حتى انكشف مكانه فحمل عليه أخوان من بني حنيفة من أصحاب « المهلب بن أبي صفرة » (عدو الخوارج الأكبر) فضرباه بالسيف حتى سقط قتيلًا ثم حزا رأسه وأتيا به إلى مصعب . وهذا بعثه إلى أخيه عبد الله بمكة . وكان هذا في رمضان سنة ٦٧ هـ .

وهكذا اختفت دولة الشيعة في الكوفة بعد أن عمرت حوالى عام ونصف العام .. وبعد أن أدت مهمتها وهى القضاء على قتلة الحسين، وبذلك خلا الجو لآل الزبير في العراق .

الفصل العاشر

مقتل مصعب بن الزبير

لم يهنا الزبيريون بملك العراق طويلا ، ذلك أن عبد الملك بن مروان عندما بلغه خبر انتصار مصعب وقتل المختار أوجس خيفة منه وداخلته الوسوس من الزحف اليه وانتزاع الشام منه ، فاجتمع برجاله وقال لهم : « ان مصعب بن الزبير قد قتل المختار ودانت له أرض العراق وسائر البلدان ولست آمن أن يفزوكم في عقر بلادكم ، وما من قوم غزوا في عقر دارهم الا ذلوا فما ترون ؟ »

وقال اصحاب المشورة : رأينا أن نرحف اليه فورا ، وقال اخوه « بشر بن مروان » : « ارى أن تجمع اليك اطرافك وتستجيش جنودك ، وتضم اليك قواصيك وتسير اليه وتلف الخيل بالخيال والرجال بالرجال والنصر من عند الله » .

وسرعان ما بعث عبد الملك رسله في مختلف الاقاليم لجمع المتطوعة والأنصار وتكامل له جيش ضخم كان من رجاله موسى بن نصير . انطلق به نحو العراق فلما بلغ «مسكن» قرب شاطيء دجلة شمالي العراق بعث لمصعب يؤمنه على نفسه « وأن يدع دعاءه الى أخيه ، ويدع هو دعاءه الى نفسه ويجعل الامر شورى بين المسلمين » فلم يقبل مصعب وأجابه «السيف بيننا» .

وفي « دير الحانات » التقى الطرفان وظل الحرب بينهما سجلا ، وفجأة توقفت قبائل ربيعة عن القتال وكانوا على ميمنة جيش مصعب ، ثم وقفوا على الحياء فضعفت بذلك جبهة الزبيريين فلم يهن هذا عزم مصعب ، وظل يقاتل بصحبة ابن الاشر حتى قتل الآخر واكتشف مكان مصعب فحمل عليه «عبد الله بن ظبيان الرواني» وضربه من خلفه بالسيف فخر صريعا ثم قطع رأسه وأتى به عبد الملك . فحزن عليه وقال : « وددت أنه قبل الصلح وأنى قاسمته مالى » .

وقد وقعت هذه المعركة في يوم الخميس منتصف جمادى الاولى سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) ، ثم دخل عبد الملك الكوفة ، فدعا الناس لمبايعته فبايعوه ، واخيرا انصرف عنها الى دمشق بعد أن وجه الجيوش الى مكة بقيادة قوامة بن مظعون ، ثم تولاهما ثانيا الحجاج بن يوسف الثقفي لقتالة عبد الله بن الزبير وتوحيد الامة العربية تحت رايته وسلطانه .

الفصل الحادى عشر

مقتل عبد الله بن الزبير

خرج الحجاج بن يوسف قاصدا الحجاز ، فنزل الطائف وأقام بها شهرا ، ثم زحف الى مكة ، ولما وصلها وجد ان عبد الله بن الزبير قد تحصن بأنصاره داخل المسجد الحرام ، فحاصره حصارا محكما ، وطالت مدة الحصار حوالى سبعة أشهر ولما رأى الحجاج أن الحصار لم يأت بالثمرة المرجوة قرر ضرب الكعبة بالمنجنيقات وقام فنصب عددا منها على جبل أبى قبيس . وعين عليها « ابن خزيمة الخثعمي » وانطلقت القذائف الحجرية فتصدعت الأسوار وقتلت الكثير من الأنفس فأصاب الناس الشدة والهلكة .

ولما بلغ اليأس بأنصار ابن الزبير غايته قرر أكثرهم النجاة بأنفسهم وخرجوا الى الحجاج وطلبوا الامان ، وتبعهم كثيرون حتى بلغ من تخطى عن ابن الزبير حوالى عشرة آلاف من المحاربين من بينهم ولدان له أحدهما « حمزة » وبالرغم من ذلك مكث عبد الله بن الزبير صامدا كالطود ولما رأى أن المعركة قد قاربت نهايتها قام في صباح يوم الثلاثاء الموافق ١٧ من جمادى الاخرى عام ٧٣ هـ (٦٩٢ ميلادية) ودخل على أمه (اسماء بنت أبى بكر) وقال لها :

« يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى الا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ماأردت من الدنيا فما رأيك ؟ »

فقالته أمه :

« أنت أعلم بنفسك : ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية ، وان كنت إنما أردت الدنيا فيئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك . وان قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين ، كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن »

فقال عبد الله :

« يا أماه أخاف أن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى » .

فقالته اسماء :

« يا بني ، ان الشاة لا يضرها سلقها بعد ذبحها ، فامض على بصيرتك واستعن بالله » .

فقال عبد الله :

« هذا والله رأيي الذي قمت به داعيا الى يومي هذا ، ما ركنت الى الدنيا ولا احببت الحياة فيها » .

فقالت أمه :

« اني لأرجو من الله ان يكون عزائي فيك حسنا : ان تقدمتنى احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك ، اخرج حتى انظر الى ما يصير اليه امرك » .

فرد عليها عبد الله بقوله :

« جزاك الله خيرا فلا تدعى الدعاء لى » .

فقالت له :

« لا ادعه لك أبدا يا بني فمن قتل على باطل فقد قتل على حق » .

ثم رفعت أكفها الى السماء وقالت : اللهم ارحم طول ذاك القيام في الليل الطويل ، وذلك النجيب والظما في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لامرك فيه ورضيت بما قضيت ، فأبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين »

ثم ضمته الى نفسها وخرج من عندها ، وذهب الى رجاله . وقال لهم بعد ان صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه :

« أيها الانصار - ان الموت تفشاكم سحابه ، وهو مفرغ عليكم ودقه (مطره) وقاد اليكم البلايا تتبعها البلايا ، فاجعلوا السيوف لها غرضا واستعينوا عليها بالصبر » .

ثم غادر المنبر ، وبينما هو ينظم صفوفه اذ أصابته قذيفة منجنيق في جبهته فسقطت على الارض ، ولكنه سرعان ما تحامل على نفسه وقام ينشد ويقول :

فلسنا على الاعتقاب ندعى كلومنا
ولكن على أقدامنا تقطر الدماء

ثم نادى في رجاله : « اخرجوا الى من بالباب واحملوا على بركة
ناله ولا يلهينكم طلبى والسؤال عنى فانى في الرعيل الاول » .

وانطلق شاهرا سيفه وخرج من المسجد يصحبه عبد الله بن
صفوان واشتد في قتاله حتى قتل أكثر من كان معه وأحدق به رجال
الحجاج من كل جانب ، وضربوه بالسيوف ضربة رجل واحد فسقط
مضرجا بالدماء في ذلك اليوم . وأمر الحجاج أن يصلب فصلبوه .

وعقب مقتل ابن الزبير اندفع زعماء بنى هاشم في مكة والمدينة
يبايعون عبد الملك ، فبايعه عبد الله بن عمر . ثم محمد بن الحنفية ، ثم
كذلك أهل خراسان جاءته بيعتهم في سنة ٧٤ هـ (٦٩٣ ميلادية) وغيرهم
اللهم الا فئة قليلة بالنسبة الى كثرة الأمة العربية ، وهى فئة شاذة ظلت
خارجة عن الجماعة . وهم الخوارج وقد لاقوا مصيرهم بعد ذلك على يدى
الحجاج والمهلب بن أبى صفرة فى عام ٧٧ هجرية وانتهت فتنتهم . ولم يعد
هناك فرقة ولا شذوذ ، وبذلك أسدل الستار على دولة الزيريين وبلغت
الأمة الاسلامية أهدافها الوحدوية بعد انقسام بين ابنائها استمر ثلاثة
عشر عاما منذ خروج الحسين الى الكوفة فى عام ٦١ هجرية الذى انتهى
بمقتل عبد الله بن الزبير ، وذهب كل مدع للخلافة وأصبح على عرش
الدولة خليفة واحد . هو عبد الملك بن مروان وهو وحده الذى يدعى
« أمير المؤمنين » لا ينازعه فى هذا اللقب منازع .

ونستنتج من تلك الحوادث التى مرت بنسأ أن أسباب خذلان
عبد الله ابن الزبير وانفصاض أنصاره وأولاده من وله يرجع الى عدة
عوامل فى شخصية الرجل :

أولها - أنه كان يتعالى على بنى هاشم ، وكان يعمل دائما على كل
ما يغيظهم ، ولما رأى أن ذكر النبى والصلاة عليه فى أثناء الخطبة يزيدهم
« زهوا » وتشراب أعناقهم فرحا لسماع ذكره والصلاة عليه أسقط ذكره
صلى الله عليه وسلم من خطبته ، ولما قوتح فى ذلك قال :

« والله لا يمعنى أنى أذكره علانية من ذكره سرا وأصلى عليه ، ولكنى
رأيت هذا الحى من بنى هاشم اذا سمعوا ذكره اشترأت أعناقهم وأبغض
الأشياء الى ما يسرههم » .

وكان ذلك من أهم الأسباب لنفور الهاشميين منه وإيوا مبايعته
فقال لهم :

« لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار » -

ولكن تهديده لم يلبث فئاتهم فأمر بحبس كبيرهم «محمد بن الحنفية»
مع خمسة عشر من أشراف الهاشميين ، مما نفر القلوب من حوله .

وثانيها - انه رفض الذهاب مع الحصين بن نعمان الى الشام للمبايعة
وقد كانت الاغلبية في دمشق تميل الى ذلك، وقد مر بنا هذا قبيل اجتماع
الجابية .

وثالثها - انه كان موصوفا بالبخل وحبس المال عن الذين يناضلون
من أجله في العراق ، ولم يكرم قوادهم الذين حضروا اليه بصحبة أخيه
مصعب لتجديد البيعة له ، مما أدى الى خروجهم عليه وانسحابهم من
صفوف مصعب وهو يقاتل جند عبد الملك في دير الحانات بعكس عبد الملك
الذي كان كثير المعايا لانصاره .

ورابعها - مساندته لأبيه الزبير الذي بايع على بن أبي طالب في
أول الامر ثم نقض بيعته وانضم الى طلحة والسيدة عائشة وانطلق يؤيد
معاوية معهم .

وخامسها - احلاله القتال في الحرم وهو لم يحل لاحد من بعد النبي
عليه الصلاة والسلام .

كل هذه الاسباب نعتقد انها كانت من أهم العوامل التي أدت الى
فشل عبد الله بن الزبير وخاتمته المؤمنة .

الفصل الثاني عشر

موسي الوزير

عرف موسى منذ صغره بأنه طموح لاحد لرغباته وأنه اذا أراد شيئاً فهو يحاول أن يناله مهما كلفه ذلك من عناء وتدبير . كما عرف بأنه نزاع الى السيطرة وحب السلطان . والآن بعد أن دانت الاقطار الاسلامية لآل مروان وتوحدت على أيديهم فهو يأمل أن يحقق لنفسه أقصى ماكان يأمل أن يناله وهو الانفراد بحكم اقليم من هذه الاقاليم الكبيرة في الامبراطورية العربية التي أظهر لها من الاخلاص والتفاني في مختلف ميادين القتال في سبيل انشائها ما جعل الخليفة عبد الملك يخصه بالعطف البالغ والمزيد من عنايته ورعايته .

وبينما هو يفكر في ذلك ويدبر أمره للوصول الى غرضه عن طريق البصرة وإسناد أمرها الى بشر بن مروان أخى الخليفة بجانب ولابته على مولاه عبد العزيز وأتته الفرصة بعزل خالد بن عبد الله الأموي عن امارته الكوفة مع تعيين موسى بن نصير وزيراً على خراجها وجباية أموال اراضيها .

وهكذا بدا الحلف يبتسم لموسى وبدأت أمانيه تأخذ مكانها في طريق التحقيق .

تولى موسى امر خراج البصرة في أواخر عام ٧٨٣ هـ الموافق لعام ٦٩٢ ميلادية فمسار في عمله بجهد ونشاط ، وكان همه منصرفاً كله الى اشباع رغباته من الخيرات واحاطة نفسه بهالة من السلطان والنفوذ الذي ظل يحلم بهما طيلة عمره وفتح قصره للمادحين والانصار وأسرف في عطائه اسرافاً لا حد له مما أغضب الخليفة عبد الملك وأمره برد ما استحوذ عليه من أموال الدولة التي بددها في سبيل شهرته والتشبه بالخلفاء والولاة .

ولماعجز عن تسديدها ووجد أنه واقع لامحالة في يد الخليفة ليقصص منه جزء اسرافه لم يجد أمامه سسوى الفرار من البصرة والتوجه الى صديقه عبد العزيز بن مروان في مصر ليستجير به للمرة الثانية .

الفصل الثالث عشر

مومي اللاجي

خرج موسى من البصرة خائفا مترقبا حتى وصل إلى مصر فأدى عنه مولاه عبد العزيز بعض المال المطلوب وشفع له في الباقي ، وظل مقيما بجوار عبد العزيز في مصر .

وفي أثناء إقامته أظهر لمولاه إخلاصا منقطع النظير وحمل عنه كثيرا من أعباء الحكم ، وكان سفيره ومستشاره الأول في مختلف الأمور .

ولما طلب الوليد بن عبد الملك من عمه عبد العزيز أن يزوجه ابنته «أم البنين» كان موسى رئيس بعثة الشرف التي حملت العروس إلى دمشق فازدادت بذلك محبته عند عبد الملك وابنه الوليد وظلت العروس من جانبها تزكيه دائما لدى زوجها وعمها « وتنمية مكانته عندهما » كما يقول ابن حيان الأمر الذي ضاعف من منزلة موسى لدى المروانيين وعد من رجالهم المخلصين .

وبمناسبة ذكر أم البنين كان عمها أمير المؤمنين يكن لها التقدير الكامل لما لمسه فيها من سعة الأفق والنظر إلى الأمور بنظرة العالمة الخبيرة حتى أنه لم يعرف عنه أنه رفض لها طلبا أو رجاء أو شفاعة لأحد. دخل عليها يوما كعادته يسألها « هل من حاجة ؟ »

فقالت :

« نعم لي حاجة يا عماء » .

فقال لها :

« وقد قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات » .

فقالت له :

« لا تستثن علي شيئا يا عماء » .

والظاهر أن ردها كان فيه شيء من الحدة نظرا لما كان لها من دلال عليه لم يقبله منها فما كان منه إلا أن « لطمها لطمة خفيفة على وجهها » فوضعت يدها على خدها تتقى بذلك ضرباته .
فقال لها بعد أن شعر بتأنيب ضميره .

« يابنتي ، ارفعى يدك فقد قضيت كل حاجة لك وان كانت
ابن قيس الرقيات » .

فقالت له :

« ان حاجتي قيس الرقيات تؤمنه ، فقد كتب الى ابي يسألني ان
اسألك ذلك » .

فرد عليها عبد الملك قائلا :

« هو آمن فمريه يحضر مجلس العشية » .

وابن الرقيات هذا هو عبيد الله بن قيس الرقيات . وكان شاعر
معصب بن الزبير ومن معارضي آل مروان ، ولما قتل مصعب ظل مختفيا عن
أعين عبد الملك حوالي العام ، ولما ضاقت نفسه من المحبس خرج من الكوفة
متلفحا بالليل الاسود ، واتخذ طريقه نحو مدينة الرسول وهناك استجار
بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقال له جعفر :

« ويحك ما أجدهم في طلبك وأحرصهم على الظفر بك . ولكني
سأكتب الى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان فهي زوجة الوليد بن
عبد الملك . وعبد الملك أرق شئ عليها » .

وبعت اليها جعفر طالبا شفاعتها للشاعر وأرسل في الوقت نفسه
كتابا الى عبد العزيز يطلب منه أن يكتب لابنته يسألها للشفاعة ، وكان
ما تقدم ذكره .

الفصل الرابع عشر

موسي الفاتح

عاش موسى بن نصير في مصر بضع سنين كان في خلالها يبنى نفسه بحكم ولاية من ولايات الدولة يسترد بها ما فقدته في البصرة من الجاه والنفوذ ولم يطل به الوقت ، فسرعان ما طرق الحظ بابَه للمرة الثانية في حياته حاملا معه في خلال عام ٧٩ هجرية الموافق لسنة ٦٩٨ ميلادية رغبة مولاه « عبد العزيز بن مروان » في تعيينه واليا على افريقية وما يليها وهي التي بدأ المسلمون في فتحها منذ العام الثاني والعشرين للهجرة والتي كانت ادبرتها تابعة لوالي مصر وقت ذاك . وكان ذلك خلفا لحسان بن النعمان الفسائي الذي غضب عليه عبد العزيز وعزله عنها .

وهنا يغلب علينا الظن أن عزل حسان بعد انتصاراته المظفرة في افريقية والتي سيرد ذكرها فيما بعد لم يكن الا بتدبير سابق ، وأن موسى ابن نصير قد قام بالدور الكبير في هذا العزل ليفسح لنفسه الطريق لأن منطلق الاحداث وتاريخ موسى يؤيدان ذلك نظرا لما فطر عليه من التطلع الى حب السيطرة والتحكم وما كان يغلب عليه مما لا يكاد رئيس يسلم منه « وهو الحقد والحسد والمنافسة » كما جاء في كتاب نفع الطيب .

وسواء كان تعيين موسى واليا على افريقية بتدبير سابق منه أو بمساعدة الحظ له فاننا نرى اتماما للفائدة وقد تعرضنا لذكر افريقية أن نقول كلمة عنها وعن تاريخها وغزو الاسلام لها قبل أن نسير اليها بصحبة الفاتح الكبير .

القسم الثاني

شمال افريقية والشعوب التي حكمته



الفصل الاول

أفريقية

أطلق العرب اسم افريقية في أول الأمر على بلاد تونس أو المغرب الأدنى ، ثم تطور هذا الاسم فشمل كل بلاد المغرب ابتداء من مدينة برقة حتى المحيط الأطلسي ، ثم عمم فيما بعد فشمل القارة الافريقية بأكملها ، وبعد ذلك استعير عنه باسم المغرب •

وكان لفظ المغرب يقتصر في بادئ الأمر على بلاد المغرب ابتداء من بلدة بجاية شرقا الى المحيط الأطلسي غربا ، ثم اتسع معناه فأصبح يضم كل مدن افريقية الشمالية ابتداء من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط ، وقسمه العرب ثلاثة أقسام :

• الأول - المغرب الأدنى ويضم برقة وطرابلس وتونس •

الثاني - المغرب الأوسط ويبدأ من حدود الجزائر شرقا حتى وهران •

الثالث - المغرب الأقصى ويبدأ من مدينة تلمسان حتى المحيط الأطلسي •

ويقول أغلب المؤرخين ان أول من حكم القارة الافريقية هو الملك العربي « أفريقي بن قيس » المنتمي الى قبيلة قيس اليمينية ، وسميت القارة الافريقية باسمه وإن شعوب شمالى افريقية والسودان والصحراء الكبرى من المحيط الهندي والبحر الاحمر الى المحيط الأطلسي سواء كانوا من النازحين من اليمن أو من جنوب الصحراء أو من الساحل الشرقي للبحر الأبيض - ينتمون الى الاصل العربي وقد تحققت لهم وحدة الجنس منذ أقدم العصور •

ثم غزت روما بوثنيها الشرق ومصر وشمالى افريقية ، وجاءت بعدها المسيحية فاعتنقها بعضهم وظلت الاغلبية متمسكة بالوحدة الدينية ورفضت اعتناق الثالوثية واثارت على كنيسة روما ونادت بالمساواة بين الناس وامتدت ثورتها حتى شملت ليبيا وبرقة ، وكانت هذه الثورة أحد العوامل التي ساعدت على القضاء على النفوذ الروماني وسيطرته على شمالى افريقية •

ولما سيطرت الامبراطورية الشرقية «بيزنطة» على المغرب فى القرن

السادس الميلادي وقضت على قبائل الوندال التي نزلت من اسبانيا واستقرت فيه - أرادت أن تصرف أبناء شمالي افريقية عن عقيدتهم ، فتصدى لها أهل المغرب ، وظلوا في صراع دائم معها الى أن جاء العرب المسلمون من شبه الجزيرة ومصر حاملين مشعل الوحدةانية والاعتراف بكرامة الانسان كما أراد الله لها أن تكون : « ولقد كرّمنا بنى آدم » فروع أهل للمغرب يعلنون دخولهم في دين اخوانهم الجديد ويعتقون عقيدتهم السمحة الكريمة ، وقد ساعدت على ذلك رواسب الأصل الواحد في كل من أولئك وهؤلاء .

وهكذا حقق الاسلام الوحدة الكاملة بين هذه الشعوب التي فرقها السعى على الكلا والماء منذ أقدم العصور ، وبذلك زال سلطان القرب المسيحي عن شمالي افريقية وأصبح هذا الجزء من افريقية عربيا مسلما .

وكانت بلاد المغرب تعرف أيضا في العصور الوسطى ببلاد البربر نسبة الى كلمة « بربر » وينقسم مدلول هذه الكلمة اربعة أقسام :

الاول - في عهد هوميرو كانت تطلق على القبائل للعقدة اللهجة واللفة .

والثاني - في عهد هيرودت . كانت تطلق على بعض الامم الغربية .

والثالث - في عهد بلوتوس خضع الرومان أنفسهم للاهانة وأطلقوا الكلمة على أنفسهم خلا ايطاليا ثم وصموا بذلك الاسم القبائل المتوحشة خارج الامبراطورية .

والرابع - في عهد العرب عربت كلمة بربر وبرابر ، والبربر هم سكان المغرب الاصليون ، وهم الذين سبق ذكرهم بأنهم انحدروا من جنوب الجزيرة العربية ، وقد قال بذلك ابن خلدون ورجح عدد كبير من المؤرخين رأيه لكثرة ما رآه ولمسوه من التشابه بين البربر وبين العرب في الصفات واللهجة والطباع والاتفاق معهم في كثير من المزايا كحب القتال والغزو والشجاعة والشهامة والمروءة ، وكذلك وحدة الخلق والتعصب لقوميتهم والصبر الطويل على المصائب وغير ذلك من الطباع والحصال المشهورة عن العرب في مختلف أمور الحياة .

ويرى الدكتور السيد عبد العزيز سسالم ان البربر ينقسمون من حيث الصفات الجسمانية الى نوعين مختلفين :

الاول : وهو أغلبية سكان البلاد يتميز بلونه الاسمر وشعره الاسود ورأسه المستدير وبيروز خديه وقصر أنفه وتقوس جبهته *

والآخر - ويقتصر على سكان الريف وجبل جرجرة بالمغرب الاوسط ويتميز بشقرة لون الشعر وزرقة العينين واستطالة الرأس ودقة الأنف ورقة الشفتين وتسطح الجبهة ، ولعلمهم الأفارقة الذين ذكرهم المؤرخون من بقايا الشعب القرطاجي (الفينيقيون) *

أما من الوجهة الاجتماعية فينقسم البربر الى طائفتين متباينتين :

طائفة البربر الحضري ويسمونها البرانس *

وطائفة البربر الرحل ويعرفون بالبتر *

والبرانس كلمة عربية أطلقها العرب على السكان المتحضرين الذين يتصلون بحضارة الامم التي تعاقبت على حكمهم مما سيرد ذكره في هذا الكتاب وينقسمون الى قبائل متعددة منها كنامة ، وازواجة، ومصمودة، وأورقية وصنهاجة وهذه كانت من أعظم قبائل البرانس حضارة وقوة *

أما قبائل البتر فهم بدو رحل يعيش أغلبهم على الرعي والاغارة على السهول وينقسمون الى قبائل منها اداسة ولوانة وانفوسة ونفراوة ورجاجة زناتة وهذه أيضا ضربت بسهم وافر في الأخذ بأساليب الحضارة كما يقول ابن خلدون وكانت أعظم قبائل البتر خطرا *

ويرى الدكتور حسين مؤنس ان العرب هم الذين قسموا البربر الى هاتين الطائفتين على نحو انقسامهم هم أنفسهم الى شعبي القحطانيين والعديانيين وأن البربر يجتمعون الى جد أكبر اخترعوا له اسما اشتقوه من اسم الجنس وسموه « بر بن قيس » الذي مر بنا ذكره *

كما يقول أيضا في أصل كلمتي برانس وبتر أن البرانس نسبة الى برنس بن بر فسموا بالبرانس * والبتر نسبة الى مادغيش بن بر الملقب بالأبتر فسموا بالبتر *

على أن بعض الباحثين من أمثال « وليم مرسيه » يرون أن البرانس سموا كذلك لتدثرهم بلباس للرأس يعرف بالبرنس ، وأن البتر كانوا لا يرتدون هذا الزي وتجردوا من البرنس فسموا ببرا *

أما الشعوب التي تعاقبت على حكمهم الى أن جاء لهم العرب فاتحين فالى القاريء نبذة عن تاريخ كل منهم ازديادا للمعرفة واتماما للبحث .

الفصل الثاني

المغرب في ظل الفينيقيين

اتصل الفينيقيون بالمغرب عن طريق الغزو التجارى فى أوائل القرن الثانى عشر قبل مولد المسيح ، فلقد كانوا أصحاب تجارة واسعة فى مدينتهم «صور» ولما عظمت تجارتهم تطلّعوا الى مد نشاطهم التجارى الى البلاد التى فى حوض البحر الابيض المتوسط ، وبنوا لذلك الاساطيل البحرية الضخمة ، ولما لاقت بضاعتهم راجا كبيرا عند شعوب شمالى افريقية أخذوا بهجرون « صور » وينشئون قواعد تجارية لهم فى هذه البقاع . وكانت أولى اقامتهم فى الارض التى بين « برقة وطرابلس » المعروفة « بصرت » ثم أسسوا لانفسهم فى عام ١١٠١ ق.م مدينة إتيكا على الساحل الغربى لخليج تونس . وأتبعوها انشاء عدة مدن أخرى منها سوسة وبنزرت وعنابة ومليلة وطنجة ثم مدينة العرائس على ساحل المحيط .

وفى عام ٨١٤ ق.م قاموا ببناء عاصمة لهم وأطلقوا عليها اسم «قرطاجنة» وكان موقعها فى جوف الخليج الذى يصب فيه نهر مجردة ووادى مليانة وقاموا بتحصينها تحصينا قويا لتدرا عنهم هجمات الحوصوم وبلغ امتداد سورها حوالى أربعة وثلاثين كم فى ارتفاع ثلاثة عشر مترا وسماك يزيد على ثمانية أمتار ، وكانت تتخلله أبراج منيعة بين كل برج وآخر تسعة وخمسين مترا .

وقد اختاروا تشييدها فى هذا الموقع الاستراتيجى ليساعدهم على مد نفوذهم التجارى مع مختلف الشعوب من افريقيين وغربيين على السواء .

ولما اشتد ساعد الامبراطورية الفارسية واحتلت مدينتهم «صور» وفرضت سيطرتها على مصر أيضا وبرقة هبت قرطاجنة لتششارك هذه الامبراطورية فى النفوذ الدولى وتطلعت الى بسط نفوذها على بعض جزر البحر الابيض ونجحت فى عام ٥٣٥ ق.م فى امتلاك الجزء الغربى من صقلية ، وكان الاغريق يحكمون الجزء الاكبر من الجزيرة .

وقد رأت قرطاجنة فى الاغريق أعظم الخطر على نفوذها ، فقررت فى عام ٤٨٠ ق.م اعلان الحرب عليهم وأبحر جيشها الى بلدة بالرمو فى صقلية لمنازلتهم ، ولكن الاغريق قضوا على هذا الجيش ، فاضطرت الى التوقف عن استعمارها البحرى ، ولكنها كانت بين كل حين وآخر تشن

عليها الحملات بغية احتلالها ، غير أن أهلها كانوا دائما يحبطون غاراتها، وظل القرطاجنيون على تلك الحال الى أن سقطت مدينتهم « صور » ثانيا في يد الاسكندر الأكبر في سنة ٣٣٢ ق.م فأحجموا عن غزو صقلية مؤقتا .

وفي عام ٢٨٩ ق.م مات « أجاثوكل » زعيم صقلية وعدو قرطاجنة الأكبر وثلا موته انقسام في داخل حزبه شجع قرطاجنة على التدخل ثانيا في صقلية ، فتصدى لها الايطاليون الذين استنجدوا بروما وبذلك وقفت قرطاجنة وجها لوجه أمام روما .

اندفع الرومان الغربيون لنصرة المستجيرين بهم ، وأمكنهم تحريرهم من قبضة قرطاجنة ، ولما فرغوا من ذلك عزموا على محاربة أهل قرطاجنة في عقر دارهم بالغرب ، ونزلت قواتهم على الشاطئ ، فقابلتهم قرطاجنة بجيوشها وأمكنها الانتصار عليهم في عام ٢٥٥ ق.م ، ولكن روما لم تدعن للهزيمة فواصلت الحرب ضدها حتى أرغمتها على الاعتراف بسيادتها على صقلية ثانيا ودفع اتاوة سنوية لها .

وفي خلسال هذا الصراع راود البربر فكرة الاستقلال بالمغرب وانتزاعه من سيطرة قرطاجنة وقاموا بزعامة « مانو » يؤيدهم بعض العناصر الحاقدة ، وفرضوا سيطرتهم على الطريق الموصل بين قرية تونس القديمة ومدينة قرطاجنة ، وقاموا في سنة ٢٢٤ ق.م بمحاصرة مدينتي أوتيكا وبزرت ، ولكن حصارهم لم يدم طويلا ، فقد استطاع القرطاجنيون بما لديهم من قوة فك هذا الحصار والقضاء على هذه الثورة الشعبية .

وعقب ذلك قررت قرطاجنة محاربة روما ثانيا وأعدت جيشا كبيرا بقيادة « أميلكار » لاحتلال اسبانيا استعدادا للزحف على روما ، ومرعان ما عبر الجيش المضيق واستولى على الشاطئ الشرقي لاسبانيا ، ففزعت روما وخشيت أن تتحالف قرطاجنة وغاليا (فرنسا) عليها ، ولكنها آثرت الوقوف حتى تبين لها خطة المهاجمين .

وواصلت قرطاجنة الزحف بقيادة « هانيبال » الذي خلف والده في القيادة ، فاحتلت المدن في سهولة ويسر ، وتوغلت في اسبانيا حتى نهر وادي آنة ، وقضت على كل مقاومة ، واستولت على المناطق الغربية من نهر ابرة ، ثم توج هانيبال انتصاراته بغزو مدينة ساجونتي بعد حصار طويل وذلك في خلال عام ٢١٩ ق.م وكانت هذه المدينة خاضعة لروما ، وهنا تكشف لروما نيات قرطاجنة فطلبت منها الكف عن القتال

وتسليم هانيبال لها ، ولما رفضت عزم روما على حربها ، وبدأت في ذلك في أوائل عام ٢١٨ ق م ، ولما علم هانيبال أمر جيشه المزود بالفيالة بالزحف نحو روما .

وغادر هانيبال ميادين اسبانيا في شهر يونيو سنة ٢١٨ ق م واجتاز نهر ابرة وعبرة جبال البرت التي تعرف خطأ «بالبرانيس» ثم تخطى نهر الرون في أواخر أغسطس ، واخترق جبال الالب في خلال خمسة شهور ، وسرعان ما تقابل مع جيوش روما فدارت بينه وبينهم معارك طاحنة كان أشدها المعركة التي وقعت في أغسطس عام ٢١٦ ق م قرب مدينة (كان) وانتصر فيها هانيبال انتصارا خالدا . وكان في استطاعته أن يزحف الى روما ويحتلها ، ولكنه تريت في المسير اليها حتى يأتيه المدد الذي طلبه من اسبانيا ، وطال انتظاره حتى سنة ٢٠٨ ق م

وفي اثناء ذلك تسرب خبر موقفه المخرج الى اسماع روما فقررت في التوا انتهاز الفرصة ، وأرسلت من خلفه القائد الروماني سيبيوس لاحتلال اسبانيا ، ولما تم له النصر عزم على غزو قرطاجنة وقام في خلال عام ٢٠٤ ق م وعبر بجيشه البحر ونزل بالقرب من مدينة أونيكادارت بينه وبين القرطاجنيين معارك عنيفة استولى في أعقابها على بعض مدن الشاطئ المجاورة لمدينة قرطاجنة ولما اشتد الخطر على قرطاجنة استغاثت بهانيبال فلبى النداء مسرعا ووصل في صيف سنة ٢٠٣ ق م ، ووقعت المعركة الكبرى بين الفريقين في شهر أكتوبر من العام التالي بجوار بلدة زاما جنوب شرق العاصمة وانتهت بهزيمة هانيبال وفراره الى مدينة سوسة ، فطلب القرطاجنيون الصلح فاشتراط عليهم سيبيوس شروطا قاسية قبلوها في سنة ٢٠١ : منها الاعتراف بسيادة روما ، وأن تؤدي قرطاجنة تعويضا ضخما لها ، ثم عين القائد البربري ماسينييا حاكم ولاية نويميدا الغربية التي بقرب قرطاجنة مراقبا عليها .

حاول هانيبال بعد ذلك أن يتجه بقرطاجنة نحو الاستقرار لبناء اقتصادها المنهار وتنظيمه ، ولكن روما خشيت أن يكون في ذلك بداية لاعادة سيطرة قرطاجنة من جديد ، فحكمت عليه بالموت ، ولكنه هرب من وجهها وآثر الانتحار في عام ١٨٤ ق م .

وبالرغم من شروط المنتصرين القاسية استطاع القرطاجنيون أن يبنوا اقتصادهم وأن يعوضوا الخسائر التي سببتها حروبهم الطويلة . وشيئا فشيئا اخذت قرطاجنة تستعيد مكانتها التجارية فأثرت ثراء

فاحشا وازدهرت مدنها ، وجاب ابنؤها البحر ثانيا بحثنا وراء اسواق جديدة لتصرف تجارتهم وسلمهم حتى اذا كان عام ١٥٣ ق.م حضر الى قرطاجنة « كانون الروماني » موقدا من قبل روما لفض النزاع القائم بين قرطاجنة والحاكم البربري ماسينييا لاغتصاب عدة قرى تابعة لقرطاجنة ، فهال كانون ما رأى من الثراء الذي تنعم فيه قرطاجنة ، فخاف مقبة ذلك على نفوذ بلاده ورات روما ضرورة حل حركة هذا التقدم القرطاجنى بجميع الوسائل ، فنادى كانون بتدمير قرطاجنة تدميرا شاملا .

وامام هذا هب الشعب القرطاجنى يحصن مدينته وأحس أعضااء اللجنة الرومانية وزعيمهم كانون بذلك فشجعوا ماسينييا بالوقوف في وجه قرطاجنة ، واندلعت نيران الحرب بين الاثنين وكانت الغلبة فيها بجانب ماسينييا وأصبح قاب قوسين من احتلال العاصمة ، وخشيت روما قوة الزعيم البربرى ، فأثرت التدخل وأرسلت جيشا كبيرا احتل بلدة اوتيكا وخافت قرطاجنة الهزيمة فطلبت الصلح ، فاشترط عليها القائد الرومانى القنصل مزريوس ان تسلم أسلحتها وعتادها فقبلت مكرهة ، ثم طلب من القرطاجنيين مغادرة المدينة والاقامة فى مدينة أخرى ، فعز عليهم ان يتركوا عاصمتهم الحصينة وقرروا الدفاع عنها حتى الموت .

وامام هذا التحدى قررت روما مهاجمة قرطاجنة وتدميرها ، وزحفتم جيوشها بقيادة سيبليون إيمليان فى عام ١٤٦ ق.م ، وحاصرت المدينة ، وقامت بإغلاق جميع المنافذ البحرية للحيلولة دون وصول أية نجذات إليها ، ثم بدأ الرومان فى مهاجمتها واستمر هجومهم مدة ستة أيام ليسلا ونهارا حتى دخلوها وقاموا بتخريبها تخريبا تاما طمسوا فيه كل معالمها وآثارها التى كانت عنوانا عظيما لما وصل اليه العقل البشرى من تقدم وحضارة كانت تعد من ضمن الحضارات العظيمة التى ظهرت فى العالم القديم ، وانتقل المغرب فى أعقاب ذلك من سيد الى مسود .

الفصل الثالث

المغرب في ظل الرومان الغربيين

بالقضاء على قرطاجنة دان المغرب لسيطرة روما وكانت المنطقة التي وقعت تحت نفوذهم في ذلك الوقت لا تشمل الا الثلث الشمالي الشرقي من جمهورية تونس الحالية ، ويبدأ من مصب نهر الوادي الكبير المعروف بتوسكا قرب ميناء طبرق ، ثم ينحني نحو الجنوب الشرقي والشرق حتى هنشيرينة التي على بعد اثني عشر كيلومتر جنوب شرق مدينة سفاقص .

وكانت هذه الحدود تشمل مدى ما وصلت اليه مطامع الرومان في ارض المغرب ، اذ لم يفكروا في التوسع والسيطرة على مواقع أخرى .

رات روما بعد ان استتب لها الامر ان تقيم على حكم افريقية حاكما من اهل البلاد حتى تضمن ولاء المغرب فأقامت القائد البربري «جوجورنا» ملكا وقد خيب جوجورنا ظنها قبلا من أن يسير في ركابها بدأ يعمل في الخفاء لاستقلال بلاده ، وسار في الحكم متجاهلا تعليمات السسيناتور الروماني « نائب الامبراطور » فوقف هذا منه في أول الامر موقفا مترددا ، وحينما رأت روما أنه قد زاد في تحديه لها شنت عليه حملة شعواء كتب لها فيها النصر ، وانتزعت منه مدينة باجة في عام ١٠٩ ق.م . ثم من بعدها بلدة سيرة .

ولما رأى جوجورنا انه واقع في يدها هرب الى صهره « بوكاس » ملك ولاية موريتانيا للاحتماء عنده ، ولكن « بوكاس » كان من ذوي المطامع فأقدم على خيانة زوج ابنته وسلمه الى أعدائه وذلك في خلال عام ١٠٥ ق.م نظير أن يساعده في ضم الثلث الغربي من ولاية نويميدا التي كانت تابعة لحكم جوجورنا ، وقد حقق له الرومان مطامعه ومنحوه كذلك لقب « صديق الشعب الروماني » ، ولكن هذا الخائن لم ينعم بهذا اللقب طويلا اذ سرعان ما مات مشتوقا في يناير من العام التالي .!

ثم ظل المغرب بعد ذلك حوالي خمسين عاما ينعم بشيء من الهدوء حتى اذا أهل عام ٧٠ ق.م كانت جرثومة الحقد السياسي قد بدأت تتفشى في نفوس الرومان فانقسموا الى فريقين : فريق يؤيد يوليوس قيصر ، وفريق يؤازر خصمه القنصل بومبي .

وترجع أسباب الانقسام الى انفراد بومبي بمركز القنصلية في عام ٥٢ ق.م مخالفا لاتفاق الثلاثي الذي قسم حكم روما بينه وبين قيصر

ومرفص قراسوس المعقود في سنة ٦٠ ق.م وأراد قيصر أن يحمل مجلس الشيوخ على انتخابه أيضا قنصلا فأحبط بومبي مساعاه ، وأرسل اليه بأمره بالحضور من غالة مجردا من جيشه ، ولكن قيصر أجاب بومبي بقدميه بصحبة جيشه والسيطرة على روما ففر بومبي من وجهه الى اليونان في صيف عام ٤٩ ق.م غير أن قيصر لم يترك عسده ينعم في منفاه بل زحف اليه وحاربه حتى أرغمه على الفرار ثانيا وكانت وجهة بومبي في هذه المرة مصر فوصلها في أوائل سنة ٤٨ ق.م

ونتيجة لهذا الانقسام عم الاضطراب أنحاء المغرب وأصبحت أرضه مسرحا للقتال بين أنصار هذا وأنصار ذاك ، وتغلب حزب بومبي في أول الامر . ولكن سرعان ما لحقته الهزيمة فانقسم أجناده على أنفسهم ، فانضم فريق منهم الى قيصر ، ولحق الفريق الآخر بزعيمة في مصر ، وبذلك خلا الجو لقيصر ولم يأت عليه عام ٤٦ ق.م حتى كان قد قضى على كل أعدائه وأصبح المغرب كله يدين بالطاعة له .

ثم عمد قيصر الى تغيير النظام الاداري للمغرب بما يتفق مع سياسته ف قضى على مملكة نوميديا وأنشأ ولاية جديدة في الجزء الشرقي من نوميديا سماها « افريقية الجديدة » وبعد مقتله على يد « بروقوس » اشتد النزاع بين أنصاره وأنصار الجمهورية وشهد المغرب من جسراء ذلك عصرا من الاضطرابات .

ولما تولى الامبراطور أغسطس العرش جعل القائد البربري « جوبا الثاني » وهو الذي تربى في قصور روما ، فسيار في الحكم على هدى المستعمرين ففضب عليه الشعب ، وثار في وجهه عدة مرات مما حرمه هو وسادته لذة الاستقرار الى أن مات في سنة ٢٤ بعد مولد المسيح وخلفه ابنه « بطليموس » وكان مثل أبيه خاضعا للرومان ، فتآمر عليه الحاقدون ففضب عليه الامبراطور « جاليكولا » (٣٧ - ٤١ ميلادية) فقتله بالسهم .

وبالرغم من ان البربر كانوا يبغضونه لرومانيتهم فان طريقة موته قد أثارت كوامن الحقد في نفوسهم ، فهبوا بالثورة ضد المحتلين في مقاطعة موريتانيا ثم امتدت شرارتها حتى وصلت الى جبال الاطلس ، ولما عجز الامبراطور « كلوديوس » عن اخمادها قام في عام ٤٢ م بتقسيم الولاية الثائرة الى قسمين موريتانيا الطنجية ، وموريتانيا القيصرية . وكان لهذا التقسيم أثره في نفوس البربر فشغلوا به حينما حتى انطفأت جذوة الثورة في قلوبهم مما مكن للرومان بأن يعيشوا في جو يفره الهدوء والاستقرار فترة احتلالهم للمغرب الى أن سيطر عليه الوندال في سنة ٤٢٩ م .

الفصل الرابع
المغرب في ظل الوندال

فى عصور ما قبل التاريخ كان يسكن سواحل بحر البلطيق قبائل
اشتهرت بالهمجية الوحشية تلك هى القبائل الجرمانية المعروفة بقبائل
الوندال ، ولما اشتدت عليها وطأة العيش فى القرن الاول الميلادى آثرت بعد
الدار على قربها ورحلت نحو السهول التى بأعلى نهري الاودر والفيستول .

وفى القرن الثانى بعد مولد المسيح ابان هجرة قبائل القوط الاقوياء
!نقسموا فريقين هما : السيليون والحسديون « نسبة الى زعمائهم »
وعاشوا فى منطقة الراين الاوسط مفككى الاواصر ، ولما بلغت الامبراطورية
الرومانية اسوأ حالات الضعف نتيجة الصراع الأسرى اضطر الأباطرة
الضعفاء ان يستعينوا بفريق من الوندال لحمايتهم والاعتماد عليهم فى
المحافظة على أمن البلاد .

وكان الوندال بسليقتهم نزاعين الى السلطان فوجدوا فى ذلك الامل
المبتغى ليوصلهم الى الغرض المنشود .

وساروا فى مناصبهم لا لخدمة الامبراطورية ، بل لخدمة أنفسهم
وما يصبون اليه من زعامة وسيطرة .

وفى الوقت الذى كانت فيه قوة الامبراطورية تسير من ضعف الى
ضعف كانت قوتهم آخذة فى الازدياد ، فقد اتحدوا مع اخوانهم الاوائل ،
ثم تبع ذلك اتحادهم مع قبائل اخرى من فصيلتهم اشد همجية منهم ، هى
قبائل الالان والسويف ، ولما بلغوا من القوة منتهاها تمردوا على الدولة
وانطلقوا الى منطقة الراين وأراضى غالة (فرنسا) ومنها عبروا جبال
البرت ووطئوا أرض اسبانيا فى عام ٤٠٩ م ، ثم قسموا اسبانيا فيها
بينهم فاختر الحسديون « الوندال » والسويف منطقة الشمال الغربى
اقليم جليقية واستقروا فيها . وقد أقرتهم الامبراطورية على ذلك فى سنة
٤١١ م خوفا منهم واكتفاء لشرمهم ، واشترطت عليهم أن يحافظوا على حرمة
جيرانهم من الشعوب الاخرى ، ولكنهم فعلوا عكس ذلك .

اما اخوانهم السيليون فاختراروا منساطق الشرق والجنوب ووسط
البلاد سكنا لهم ، وأطلقوا على هذه الاجزاء اسم « فندالوسيا » نسبة الى
قبائلهم الوندالية وهو الاسم الذى حوره العرب فيما بعد الى «أندلس» ،

ثم أطلقوا في النهاية على اسبانيا كلها على حين قطن اخوانهم الآن اقليم
لوزيتانيا (البرتغال الآن) • ولم يكن أولئك هؤلاء أفضل من اخوانهم ،
اذ فاقوهم في البطش والاغارة على ما حولهم من طوائف خصوصا في
جنوبي غالة وحوض نهر الرون •

وما كاد كل فريق يستقر في موطنه الجديد حتى فاجأ الجميع قبائل
أشد منهم قوة ، تلك هي قبائل القوط الغربيين الذين سبق ذكرهم والذين
منحتهم الدولة جنوبي غالة ، فقد زحفوا بقيادة زعيمهم «أطاوولف» فأعلنوا
عليهم الحرب وكان النصر حليفهم فيها • فارتد الآن الى جهة الساحل
الشمالي المطل على خليج بسكاي في المحيط ، وهرب السويف الى الركن
الشمالي الغربي من البلاد •

أما بقية اخوانهم من الوندال فقد حاولوا الصمود أمام أطاوولف ،
ولكنهم لم يستطيعوا فتراجعوا نحو أماكنهم الأولى في الجنوب •

وفي عام ٤٢٥ للميلاد استولى زعيمهم « جندريك » على مدينتي
قرطاجنة (الاسبانية) واشبيلية وبذلك أصبح ساحل اسبانيا الجنوبي
خاضعا للوندال •

ومات جندريك وقام بالامر بعده اخوه « جنصريك » ، فأخذ يعمل
لتحقيق أمنية أخيه في التوسع والسلطان وفي هذا الوقت اضطرب الامر
في المغرب من جراء عسقم اعتراف الامبراطورية البيزنطية بالامبراطور
فالنتيان خلفا للامبراطور الروماني «أونوريوس» المتوفى في روما عام
٤٢٣ م وقيام الكونت بونيفاس حاكم المغرب بمقاومة ذلك ، ثم ما وقع بين
هذا وبين «بلاسيديا» صاحبة النفوذ الاكبر في روما وأخت الامبراطور
الراحل من عداة نتيجة زواجه بفتاة لا تعتنق الكاثوليكية ، وكان أن أعلن
الحرب على الجيوش الرومانية المقيمة بالمغرب وانتصر عليها في سنة
٤٢٧ م •

ولما وجد بونيفاس أن القوط الغربيين يفرون على مدينة قرطاجنة
(المغربية) استنجد بالوندال • ولم يشأ جنصريك أن يترك هذه الفرصة
تغلت من يده فقام على الفور من مدينة « خوليا تراد وكنا » (طريف) •
وعبر زقاق جبل كالبى (جبل طارق بعد ذلك) ونزل في طنجة بجيوشه
الجرارة ، ومن هناك انطلق الونداليون الى ولاية نوميديا وكانوا في زحفهم
يدمرون وينهبون كل شيء كما دتهم مما جعل بونيفاس يحرق الارم غيظا
وندما على استنجاهه هؤلاء القساة ، واضطر أمام أطاعهم ووحشيتهم أن

يطلب الصلح مع روما ، فأرسلت له «بلاسيديا» حملة قسوية ، ولكنه لم يستطع الصمود أمام الدفع الوندالي فهرب إلى مدينة عنابة ، فحاصره جنصرىك مدة أربعة عشر شهرا ولكن بدون جدوى ، فترك جنصرىك المدينة وانطلق برجاله نحو مدينتى قسنطينة وقرطاجنة . وفى ذلك الوقت وصلت نجدة من الامبراطورية البيزنطية بقيادة استار لمساعدة بونيفاس ، وتقاتلت قوات الامبراطوريتين بقوات جنصرىك فى عام ٤٣١ م ودارت بينهما رحى الحرب ، وأخيرا انتهت بانتصار الوندال وفرار بونيفاس إلى روما ، وهرب استار إلى القسطنطينية (عاصمة بيزنطة) .

راى جنصرىك بعد أن فقد الكثير من رجاله فى هذا الصراع أن يهادن بيزنطة حتى يستعد ثانيا لجولاته المقبلة ، فعقد معها معاهدة فى ١١ من فبراير سنة ٤٣٥ م يدفع بموجبها الجزية للقسطنطينية فى مقابل أن يحتل ولاية موريتانيا ، وجزءا من ولاية موقيدا .

ومر على ذلك أربع سنوات كان جنصرىك قد عوض ما خسره من جيوش فتحركت فيه شهوة الحرب ، فأقدم على نقض المعاهدة المذكورة وانطلق فى صباح ٩ من أكتوبر سنة ٤٣٩ م نحو قرطاجنة فاحتلها ، واتخذها عاصمة للملكة .

ثم بدأ يعمل على انتزاع ما تحت يد روما من جزر ومدن ، وفى سبيل ذلك أنشأ أسطولا بحريا احتل به جزر البليار (منورقة - ميورقة - يابسة) فى البحر الأبيض المتوسط ، ثم أغار على صقلية وكورسيكا .

وإمام ذلك هبت روما تجيش الجيوش لوقف جنصرىك ، وكان هذا فى ذلك الوقت يستعد لغزو روما نفسها وقد ساعده الحظ بوقوع الفتنة التى قامت فى روما عقب مقتل الامبراطور فالنتين والذى ألهمت الرومان عن الزحف للآفة الوندال ، فانتهر جنصرىك هذه الفرصة وأرسل جيوشه ، فنزلت على شواطئ إيطاليا الجنوبية وفى زحف خاطف دخلت روما فى الثانى من شهر يونية عام ٤٥٥ م ، ثم عادت إلى قرطاجنة محملة بنفيس الفنائم وسبعين ألفا من أسرى الطليان ، منهم زوجة الامبراطور المقتول بلاسيديا التى سبق ذكرها .

ولما بلغ مسامع الامبراطور البيزنطى فى القسطنطينية عمل فورا على وقف جنصرىك وأرسل حملة جبارة على متن ستائة سفينة ، ووصلت هذه الحملة إلى شواطئ المغرب فى خلال عام ٤٦٨ م . واندلعت نيران الحرب بين الطرفين وفى خلالها ظهر للروم أن كفتهم غير زاجعة ، فانفقوا

مع جنصرىك على الانسحاب من المغرب على شرط أن يعترف لهم بالسيادة
وقد كان لهم ما أرادوا •

وفى سنة ٤٧٦ م كانت الدولة الرومانية الغربية فى النزاع الاخير ،
فانتهن القائد الثانى « ادوكر » هسدا الموقف ، وأعلن سقوط الامبراطور
« روميولوس اغسطس » وقيل : انه هو الذى نزل عن العرش ، فأرسل
مجلس شيوخ روما الى قيصر بيزنطة « الامبراطور زينون » يخبره بأن الدولة
الغربية تتقدم اليه بالطاعة لتكون تحت حمايته والتمس تعيين ادوكر حاكما
على ايطاليا ، وقد وافق زينون على ذلك وأقر رغبة روما فى سبتمبر من
العام نفسه •

كانت هذه الاحداث من اكبر العوامل التى حفزت جنصرىك على
توسيع رقعة سلطانه فى المغرب وأطلقت يده فى انشاء امبراطورية واسعة
أخذ ينفرد لتنظيمها ، وكان كحكام زمانه مستبدا قاسيا •

ولما مات فى يناير سنة ٤٧٧ تولى ابنه « هوينريك » الامر وكان
جاهلا بشئون الحكم متعصبا للديانة الاريوسية وهى تخالف الكاثوليكية ،
ولم يلبث أن توفي وقام من بعده اثنان تعاقب كل منهما على العرش منذ
عام ٤٨٤ الى عام ٥٢٣ م ، وفى عهد الثانى « تراساموند » كان الوندال
قد غرقوا الى اذانهم فى المجون والترف ، ونسوا فى سبيل البحث عن
الشهوات صفاتهم الحربية التى اخضعت أقوى أمم الارض فى ذلك الزمان ،
وما لبثوا أن ضعفت عزائمهم وفترت حماستهم الحربية مما جعل قبضتهم
على حكم المغرب تضعف شيئا فشيئا • فشجع ذلك بعض جماعات من
أحرار البربر بزعامة (جابون) بالتكثف لطردهم ، فتصدى لهم تراساموند ،
ولكنه انهزم أمامهم ثم مات غيظا وكندا •

وتولى بعده « هيلدريك » الذى نشأ فى القسطنطينية وكان اول
ما اقدم عليه أن أعلن تبعيته لبيزنطة لحمايته ، فأنكر عليه جيشه هذا
الخضوع ونادى قائده بسقوطه فى مايو سنة ٥٣٠ م •

ولما وصلت هذه الاخبار الى القيصر البيزنطى جستنيان الاول (٥٢٧
الى ٥٦٥م) أرسل يهدد جليمار فرد عليه هذا ردا يتسم بالوقاحة اثار
حفيظته مما جعله يرسل جيشا كبيرا بقيادة « بليزارىوس » لتأديبه وانقاذ
المغرب من العقيدة الاريوسية واعادة الكاثوليكية الى مثل ماكانت عليه من
قبل •

ونزل الجيش على الشاطئ بين مدينتي سفاقس وسومة وهرعت
اليه جموع كثيرة من البربر فانضمت الى بليزاريوس نكاية في جاليمار
لاخماد قروتهم والعجل على اذلالهم .

وانطلق القائد البيزنطي بحشوده الكثيرة نحو قرطاجنة . وأمام
أسوارها التحم مع الوندال في قتال مرير انتهى بهزيمة الونداليين هزيمة
مروعة وفرار جاليمار واحتل المنتصرون المدينة ، وبذلك أصبح المغرب كله
خاضعا للدولة الرومانية الشرقية « البيزنطية » .

الفصل الخامس

المغرب في ظل الرومان الشرقيين

ما كاد الامر يستقر للبيزنطيين فى المغرب حتى شرع الامبراطور جستنيان فى تطبيق نظم امبراطوريته عليه ، وهى فى مجموعها لا تتفق مع طبيعة أهل المغرب ، ثم عين عليه حاكما عاما وأمر بتقسيمه الى عدة ولايات ليضمن عدم تكتل الثائرين ويسهل على الحاكم ادارة شئونه ، وكان التقسيم على الوجه الآتى :

١ - المنطقة الشمالية وتشمل الجزء الشمالى من المغرب الادنى « تونس » ومركزها قرطاجنة .

٢ - المنطقة الجنوبية وتشمل بلاد الجزء الجنوبى من المغرب الادنى ومركزها تيبسا .

٣ - طرابلس

٤ - نوميديا وتشمل اقليم قسنطينة وما يليه من الشرق .

٥ - موريتانيا الشرقية ومركزها مدينة سطيف بالجزائر .

٦ - موريتانيا الغربية أو الطنجية ومركزها مدينة شرشال .

وسار المغرب فى ظل هذا النظام ، وكان هم حكام هذه الولايات جمع المال بأية وسيلة ونهب أرزاق الشعب بحجة تعويض الدولة عما أنفقت من أموال فى حربها مع الوندال . وقد أدى ذلك الى تدهور الحالة الاقتصادية :

فالزارعون هجروا الارض هربا من الضرائب المفروضة عليهم .

والتجار أغلقوا متاجرهم لقلة السلع وخوفا من النهب .

وتبعاً لذلك شاعت الفوضى فى أنحاء المغرب ، وقام أهله فى محاولات كثيرة بالثورة ضد المحتلين وأمكنهم فى بعض المحاولات أن ينتزعوا من أيديهم بعض المدن حتى أصبح النفوذ البيزنطى فى المغرب الاقصى لايشمل سوى مدينتى سبتة وطنجة وجزء صغير على الساحل بعد أن كان يمتد الى جوف البلاد .

وبمرور الزمن ساد القصر الحاكم فى قرطاجنة الاضطراب لسياسة العسف التى اتبعها بعض حكام الولايات ضد الشعب ، مما أدى الى ظهور

طبقة طامعة في منصب الحاكم العام ، وتحقيقا لأهدافها استمالت نحوها
نفرا من قادة البربر الانتهازيين وظلت بمعاونتهم تتصارع على انتزاع
السلطة .

وانتهز الشعب هذه الفرصة فقام بثورة جامعة عمت أنحاء المغرب .
وحاول أحد الحكام تهدئة الثورة ولكن سرعان ما صرعه الثورة في سنة
٥٤٤ م وظلت البلاد بعدها حوالي عامين بدون حاكم .

وحاول جستنيان أن يعيد الأمن الى المغرب فعين عليه القسائد
« روجاتينوس » وكان سياسيا قديرا أمكنه أن يهدئ الحالة ويجلب حوله
الثائرين حتى ساد السلام المغرب ما يقرب من خمس عشرة سنة ، ولكن
خلال هذه المدة قام البربر بمحاولة جريئة بزعامة أحد رجالهم الشجعان
« كوتزيناس » للتخلص من المستعمرين فكان القشل حليفهم وقام
روجاتينوس باعدام الزعيم الثائر في منتصف عام ٥٦٣ م . وقد هز خبر
اعدامه أهل المغرب فهبوا بالثورة وأشاعوا الخراب في كل المرافق .

ومات جستنيان وتولى العرش الامبراطور « موزيق » فأرسل القائد
هرقل الى المغرب لتهدئة الحالة . وما كاد هرقل يفرغ من الثوار حتى
فوجيء بخبر مقتل مولاة (موزيق) وقيام الامبراطور « فوكاس » بدلا عنه ،
فعز عليه ذلك وبعث هرقل ابنه بجيش كثيف الى القسطنطينية لاسقاط
فوكاس ، وقد نجح في ذلك واعتلى هرقل الابن العرش في ٥ من اكتوبر
سنة ٦١٠ م (١) .

وفي أثناء ذلك كانت الدولة الفارسية من القوة بما جعلها تقدم على
الاستيلاء على بعض الاقاليم البيزنطية ، فاحتلت مصر في عام ٦١٩ م
وأوشكت أن تغزو المغرب ، وأمام ذلك هبت بيزنطة كتلة واحدة تحارب
الفرس وانتزعت من أيديهم مصر ثانيا بعد عشر سنوات .

ثم تبع ذلك صراع طائفي بين الامبراطور والقساوسة اندلعت بسببه
الثورة في المغرب .

ثم مات هرقل وخلفه « قسطنطين الثالث » فكثرت الانقسامات
المذهبية عن ذى قبل ، وشاعت الفوضى في المغرب .

وفي غمرة تلك الاحداث بدأ العرب يفكرون في غزو المغرب ورفع
الراية العربية فوق ربوعه .

(١) هو الذي كان مأمرا للنبي عليه الصلاة والسلام .

القسم الثالث

الفتوح العربية للمغرب

الفصل الأول

فتوح عمرو بن العاص

لم يفتح المسلمون المغرب الا بعد حرب ضروس دامت حوالي سبعين عاما لقوا فيها من الشدائد والصعاب والخسائر ما لم يلقوه في فتح اى اقليم آخر ، وقد بدىء فتحه في ذى القعدة سنة ٢٠ هجرية (سبتمبر عام ٦٤٢ ميلادية) فى زمن عمرو بن العاص وانتهى فى سنة ٨٦ هجرية (٧٠٦م) على يد حسان بن النعمان ، ثم من بعده موسى ابن نصير الذى وصل بفتوحه له حتى نهر درعة ، وكانت هذه اول مرة فى التاريخ يصل فيها فاتح الى هذه المناطق النائية من بلاد افريقية .

واذا قلنا ان العرب قد تحملوا خسائر فادحة فى فتح المغرب فان هذه الخسائر اقل بكثير من الخسائر التى خسرها الرومان فى العصر القديم وخسرها الفرنسيون فى العصر الحديث عند فتحهم المغرب ، هذا وتعتبر النتيجة التى وصل اليها المسلمون فى فتحه من النتائج الحربية الرائعة وقد علق احد مؤرخى الفرنسيين «جوتيه» على ذلك بقوله : ما زالت النتائج التى وصل اليها العرب فى فتحهم الشمال الافريقى تدهشنا الى الآن ، لقد عرب المغرب الى حد كبير وتحول الى الاسلام تحولا تاما عميقا ، وهذه نتيجة تدعو الى الاعجاب ما فى ذلك شك ولم توفى الى مثل هذه النتيجة حركة استعمارية اخرى قامت على وجه الارض . ولنتكرر القول : ان هذا الفتح احدث خلال القرن السابع (الميلادى) ثورة كبيرة .

فلقد انهار الحاجز المغلق اغلاقا محكما من كل ناحية والذى كان يفصل الشرق عن الغرب . فاذا دفعنا تطلعا الى فهم الاسلوب الذى تمت به هذه الثورة الكبرى والى الاحاطة بتفاصيلها استبنا ان الفتح العربى كان طويلا جدا وغنيفا جدا . «

وهذه شهادة احد اعلام المؤرخين الغربيين عن ضخامة العمل الثورى الذى قام به العرب ومدوا خلاله رقعة الاسلام بضعة آلاف من الاميال . من الاسكندرية الى شاطئ المحيط الاطلسى واعادوا المغرب الى حظيرة الوحدة العربية الاسلامية .

ومما يلاحظ أن المؤرخ المذكور وصف الفتح للمغرب كحركة استعمارية والثابت أن العرب لم يهدفوا الى غزو المغرب ليستعمروه

الاستعمار المعروف بمعناه الصحيح في هذا العصر ، بل كان هدفهم هو نشر الدين الاسلامى الذى اختاره الله للناس كافة ، فهم بذلك كانوا أصحاب رسالة سامية وطنوا أنفسهم على نشرها في مختلف اركان الارض وخصوصا الارض العربية الممتدة من الخليج الى المحيط . فلما فرغوا من نشرها في نصفها الاول في الشرق والجنوب على ساحل المحيط الهندي . ثم في الشمال حتى حدود العراق وقضوا على الفرس والروم زحفوا الى مصر . وكان النصر حليفهم ، ثم كان عليهم بعد ذلك ان يمدوا ابصارهم نحو النصف الآخر من ارض العربيه الذى يبدأ من الاسكندرية حتى المحيط الاطلسي لانتزاعه من فلول الروم الذين انهزموا تحت ضرباتهم في ميادين العراق ومصر . وقد وفقهم الله فيما سعوا من اجله كما هو مبين بعد ونشروا دين الله ، وقضوا على تلك الفواصل التى فرقت بينهم وبين بنى عمومتهم والتى اصطنعها المستعمرون الاجانب الذين تعاقبوا على حكم المغرب الواحد بعد الآخر في مختلف العصور والدهور .

ومعروف ان المسلمين لم يتصوروا اتساع المغرب الشاسع واختلاف شعوبه حينما أقبلوا على فتحه وأنهم فتحوه بلدا بلدا وحصنا حصنا كل حصن يؤدي بهم الى الحصن الذى يليه حتى وصلوا الى طنجة على شاطئ الاطلسي .

وكان أول من فكر في فتحه ونشر رسالة الاسلام بين ربوعه هو عمرو بن العاص : وذلك عندما كان يحاصر الروم في الاسكندرية في سنة ٢٢ هجرية (٦٤٢ م) فقد رأى بعد أن فرغ من الاستيلاء على المدينة أن يواصل سيره نحو الغرب لفزو المنطقة التى بين الاسكندرية وطرابلس حتى يؤمن خطوطه الخلفية ويقضى على الحاميات الرومية المعسكرة في تلك المنطقة ولذلك بعث أحد قواده الشبان « عقبة بن نافع » على رأس فرقة استطلاعية لاكتشاف المنطقة ومدى مبلغ تحصينها وقوة حمايتها .

وانطلق عقبة برجاله ولم يصادف في طريقه الا محاربين قد انهك قوتهم الانقسام المذهبي واخذ منهم الخوف كل مأخذ فاستطاع ان يصل الى برقة دون صعاب ثم لحق به القائد الفاتح عمرو بن العاص ، وصالح اهل برقة على الجزية ، وقد لقي المسلمون ترحيبا كبيرا من السكان الذين مروا بهم فتسابقوا في الدخول الى طاعتهم واعتناق دينهم الاشتراكي العظيم ، وقد ابدوا لآخواتهم المسلمين من الاخلاص ما جعلهم

يبعثون بالجزية اليهم دون أن ينظروا قدوم عامل الخراج « موظف الضرائب » لتحصيلها منهم .

ولم يكد عمرو بن العاص ينتهي من أمر برقة حتى تابع زحفه نحو طرابلس فاستعصت عليه في أول الامر ، فحاصرها وكانت مكشوفة السور من جهة البحر ، فلما جاء الجزر وانحسر الماء عن الشاطئ اقتحم العرب الطريق بين البحر والمدينة ، ثم اندفعوا نحو البلدة فامتلكوها بعد شهر من حصارها وفر حراسها الرومان على متن سفنهم خوفا من سيف المهاجمين .

ثم تابع عمرو زحفه الكاسح الى مدينة صبرة « سبرت » وقبدها كلها بخيله في مطلع الفجر في الوقت الذي خرجت فيه حاميتها وأهلها لللقى والرعى . فسلموا له كارهين .

ورأى عمرو بعد ذلك أن فتح البلاد التي على الساحل لا يضمن خضوع المدن الا إذا قضى على الاماكن الداخلية وآخضع سكانها القاطنين في الصحراء ، ولذلك بعث « عقبة بن نافع » بفرقة من الجيش الى داخل البلاد للاستيلاء على بلدة فزان . وأرسل يسر بن أبي أرطاة لفتح مدينة ودان ، ونجح عقبة في اخضاع زويلة وفزان كما وفق زميله في فتح ودان وغدامس .

ثم بدا لعمرو أن يزحف نحو المدن التي غرب مدينة صبرة وخاصة مدينتي قابس وجرجس ، ولكنه وجد صعوبة في ذلك لقلة ما معه من الرجال ، فبعث الى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه مددا ويستأذنه في فتح افريقية (تونس) « وانه ليس أمامنا بعد أن بلغنا طرابلس الا تونس وملوكها كثيرون وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل ، وان بيننا وبينها تسعة ايام ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل . »

ولكن الخليفة خاف نتيجة اندفاع المسلمين في تلك الارض البعيدة المجهولة له فبعث لعمرو بن العاص يأمره بالعودة الى مصر .

فانصاع الفاتح العظيم للأمر وعاد الى مصر كرها بعد أن استخلف على طرابلس وما يليها القائد الشاب عقبة بن نافع . وبهذا انتهى دور عمرو بن العاص في فتح المغرب .

الفصل الثاني

فتوح عبد الله بن أبي سرح

ومات الخليفة عمر بن الخطاب وتولى الخلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه فعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وعين بدلا عنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح (أخاه في الرضاعة) .

وانتهز الرومان تلك الفرصة واشتغال المسلمين بأمور الحكم فقام جرجوريوس أو جرجير كما سماه العرب حاكم افريقية بحملة عنيفة على طرابلس فانتزعها من عقبة ومضى على ذلك أربع سنوات ، فرأى عبد الله بن أبي سرح ألا يترك الحامية الإسلامية في تلك البلاد تحت رحمة الرومان ، فعزم على نجدها واسترداد طرابلس ثم الزحف الى تونس . وبعث يستأذن الخليفة عثمان ، ولكن الخليفة كان يعلم أن سلفه عمر بن الخطاب قد نهى عمرو بن العاص عن الاستمرار في الغزو فكتب الى عبد الله بالرفض قائلا :

« ما أرى في فتحها خيرا وقد كرهها عمر من قبلى . »
فاكتفى عبد الله بإرسال بعض الفرق الفدائية للاغارة على أطراف المغرب لشد أزر قوات عقبة وجلب الغنائم التى كانت من الكثرة والغنى مما جعل الخليفة عثمان يفكر ثانيا في الاستجابة لرجاء ابن أبي سرح ومواصلة الفتح ، ورأى ألا يقطع بأمر إلا بعد مشاورة الصحابة ، ولكنهم جميعا ومنهم على بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ترددوا في الموافقة على طلبه وطالبوه بالسير على سنة عمر .

وفي رواية أخرى أنهم أبدوه على الغزو ، وقام عثمان رضى الله عنه في المسجد يدعو المسلمين للجهاد ، وكان أول الملبين بعض الصحابة وأولادهم ، فلما نظر الناس الى وجوه الصحابة وأبنائهم قد اجتمعوا أقبلوا على الجهاد طائعين ، فلما اكتملوا عرضهم عثمان ، وإذا هم أربعة آلاف فارس وثمانمائة رجل من اخلاط القبائل ، فتجهزوا بما أمكنهم وأعانهم عثمان بألف بعير بأقتابها ، وفتح خزانة السلاح وفرقها عليهم وعلى قوادهم « ثم أمر عليهم مروان بن الحكم وقيل : عثمان بن الحارث بن الحكم . وقام الخليفة فيهم خطيبا فقال :

أيها الناس انكم أصبحتم بدار لا يصلح فيها التضجيج والتواني ، وقد رأيتم عمر بن الخطاب وما فتح الله على يديه من السلم ومن

بلاد الاعجام وارض مصر وكان اهل هذه البلاد اشد قوة واكثر عددا واحسن سلاحا واغزر مالا . وفتحها الله على عباده بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه وانا أرجو الله أن يفتح عليكم ويظفركم بها ويعينكم عليها ويفتحها الله عليكم بعمه وكرمه .

ولقد كتبت الى عاملى بمصر عبد الله بن سعد وعهدت اليه أن يحسن صحبتكم وأن يرفق بكم وأن يكون عند عهدى وامرى ان شاء الله ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل ، فسيروا رحمكم الله والله خليفى عليكم .

وغادر هذا الجيش المدينة مسرعا متجها الى مصر، وسرعان ما التقى بجيش النيل فى خلال العام السادس والعشرين من الهجرة (٦٤٦ م) ، وزحف الاثنان بقيادة ابن أبى سرح الى الاسكندرية ومنها الى برقة ، فوصلوها فى اوائل العام التالى وكان فى استقبالهم عقبة بن نافع فسار معهم نحو طرابلس فاستردوها ، ثم تركوها زاحفين الى تونس ، وتحت أسوارها قابلهم جرجير بجيش عدته مائة وعشرون ألف مقاتل ، وبينما الاثنان يستعدان للمعركة الفاصلة اذ وصل لابن أبى سرح عدد من المسلمين بعث به الخليفة وعلى رأسه عبد الله بن الزبير فاشتد ساعد العرب وياتوا وهم على ثقة من النصر على عدوهم الرومى .

واشرق صباح يوم الطعن فى موضع بالقرب من مدينة سبيلة وذلك فى اوائل العام الثامن والعشرين الهجرى . فاذا جرجير ينادى فى جنده : « من قتل ابن أبى سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى ! »

ولكن سرعان ما جاء الرد من معسكر المسلمين بإيعاز من ابن الزبير « من قتل جرجير فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنة جرجير وأستعمله على بلاده ! »

ثم قسم ابن أبى سرح الجيش واختار من بعض الصحابة ومشاهير الفرسان فرقة تمكن خلف الجيش حتى اذا اشتبكت السواعد وطال الصراع ووجفت القلوب خرج هؤلاء من مكنهم يضربون أقفيسة الاعداء ويروعونهم بندااءاتهم المثيرة « الله أكبر ، الله أكبر » .

ودار القتال ونفدت الخطة فما لبث الروم الذين ظنوا ان قلوب المسلمين قد وهنت أن رأوا هجوما عنيفا قد أقبل من خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم ينتقض عليهم كالصواعق ، فوقع الاضطراب فى صفوفهم وفى لحظة خاطفة أبصر ابن الزبير جرجير ، فاندفع نحوه مكبرا

وفي عزمة المؤمن رفع سيفه وهوى به على عاتقه . ففصل رأسه عن جسده . فكانت له المكافأة وابنة المقتول ! .

وأما ولاية الإقليم فقد نزل عنها لسفره الى الخليفة ليشره بالفتح المبين .

ودان النصر للعرب وكانت الغنائم من الكثرة ما جعل نصيب كل فارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألفا وبلغ الخمس الذي حوّه معه الرسول للخليفة نصف مليون دينار كما يقولون .

ولما رأى انروم ومن والا هم من البربر ان لا طاقة لهم بجيش المسلمين بمشوا يطلبون الصلح وعرضوا على ابن ابي سرح ان يترك لهم البلاد في نظير مال من الذهب ، وفي رواية أخرى مائة قنطار ، فوافقوا صغرين وقدموا له المال المطلوب ، واجابهم على طلبهم في تعيين حاكم عليهم من قبلهم .

وبينما عبد الله يستريح من عناء القتال استعداده لرحوفه القادمة اذ قرر فجأة العودة الى مصر . ويرجع سبب ذلك - في رواية فجر الاندلس - الى تجميع شتات الروم بافريقية وتكوينهم مراكز لمقاومة ابن ابي سرح ، ثم قلة عدد جنوده قياسا الى كثرة جيوش الروم والبربر ، وسبب آخر هو ان ابن ابي سرح قد طالت غيبته عن عاصمة ولايته مصر ورغبته في العودة اليها للنظر في امورها ، كل هذا يفسر لنا السبب في قبوله الصلح مع الروم .

وهكذا غادر عبد الله المغرب دون ان يترك وراءه أية حامية عربية تحافظ على ما كسبه المسلمون كما فعل عمرو بن العاص من قبل عندما ترك عقبة بن نافع على برقة ، بل اصطحب هو عقبة معه الذي ظل مقيما في هذه النواحي يدمو الى الاسلام حتى كسب آلافا من البربر دخلوا في دين الوجدانية راضين ، ولو ان عبد الله ترك عقبة خلفه لكان لانتصار سبيطة نتائج بعيدة المدى ، ولكن انسحابه هكذا بجميع المسلمين قضى على معظم النتائج التي كان العرب قد وصاوا اليها في فتح المغرب .

غير انه مما لا شك فيه ان ما قام به ابن ابي سرح كان له شأن كبير اذ ان انتصاراته في سبيطة مرغت انوف الروم في التراب ، وقضت على الكثير من هيبتهم العسكرية ، وادخلت في قلوبهم الرعب من قوة المسلمين ، وكان ذلك من اهم العوامل التي مهدت الطريق لمن جاء بعده من القواد الفاتحين .

الفصل الثالث

غزوات معاوية بن حديج التميمي

مر على تلك الاحداث ثلاث عشرة سنة من سنة ٢٨ هجرية الى سنة ٤١ هجرية لم يقم المسلمون في خلالها بغزوة للمغرب لشغلهم بمقتل الخليفة عثمان واندلاع الفتنة الكبرى عقب موته مما هو معروف ، فلما انتهى الامر لمعاوية بن ابي سفيان عزم على استئناف فتح المغرب واسترداد المدن التي استردها الرومان في اثناء الفتنة . وكان ان اعاد عمرو بن العاص على ولاية مصر ثانيا سنة ٣٨ هـ (٦٤٨ م) فاستأنف عمرو فتوحه للمغرب ، ولكن شيخوخته وكثرة المشاكل التي واجهته في اثناء قدومه الى مصر حالت بينه وبين قيادة الجيوش فاكثف بارسال فرق من الفدائيين للاغارة والاستحواذ على الفنائم ، وبعث على رأس هؤلاء عقبة بن نافع فامكنه ان يسترد بلدة غدامس في سنة ٤٢ هـ . ثم توغل في الصحراء التي تفصل تونس عن السودان فأخضع بعض القبائل ، وغنم هنائم تفوق الوصف عاد بعدها للاقامة ببرقة . ولم يلبث عمرو بن العاص ان توفي في سنة ٤٤ هجرية .

ولما علم معاوية بن ابي سفيان ب وفاة عمرو كان اول ما أقدم عليه فصل ولاية افريقية عن مصر ليكون للخليفة حق تعيين واليها من قبله لانه لم يكن راضيا عن هذه السلطات الواسعة التي منحت حاكم مصر الحق المطلق في تعيين وال لا فريقية وعزله . ومنذ ذلك الوقت أصبح المغرب ولاية مستقلة شأنها كشأن مصر ، وكان اول وال عينه عليها ابن ابي سفيان هو « معاوية بن حديج التجيبى » أحد كبار أنصاره ومن الذين مارسوا الحرب من قبل في ميادين المغرب ، ثم زوده بجيش بلغ عدده عشرة آلاف جندي من بينهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الملك بن مروان ، وأمره بالزحف فورا نحو المغرب .

وصل ابن حديج الى مصر في سنة ٥٥ هـ (٦٦٦ م) ولم يشأ ان يضيع الوقت سدى ، بل أسرع بالزحف نحو برقة ثم خلفها متجها الى مدينة قرطاجنة التي قيل له ان الاعداء قد تكتلوا فيها لمواجهة ، ولم يكد يحط رحاله في سهل تونس في مكان « قمونة » جنوب قرطاجنة حتى جاءه الخبر بان الروم قد لبسوا عدة الحروب استعدادا للقتال ، فأسرع نحوهم ونشر مضاربه بالقرب من معسكرهم في مكان يقال له « القرن » وبدأ المسلمون يبثون الدعر في قلوب الروم بتكبيراتهم التي

كانت تصم الأذان ويتردد صدىها في جوف الصحراء فتثير فيهم الرعب مما حطم أعصابهم وجعلهم يفرون نحو بلدة سوسة عندما شاهدوا الفرقة الاستطلاعية التي بعث بها ابن حديج بقيادة عبد الملك بن الزبير ، ولكن سرعان ما لحقهم ابن الزبير ودارت بينه وبينهم معارك خفيفة اقلعوا بعدها الى جزيرة صقلية هاريين .

ودخل المسلمون مدينة سوسة مهللين مكبرين . ومن هناك بعث ابن حديج بلواء من الفرسان لاحتلال بلدة جلولاء فاستولى عليها بعد حصار وقتال سرعان ماتلاشى امام عزيمة المهاجمين على حين سار ابن حديج بنفسه نحو «بنزرت» فامكنه احتلالها .

بعد هذه الانتصارات والمكاسب رجع ابن حديج الى مكان القرن لبأخذ لجنده شيئا من راحة وحتى يوزع عليهم الفداء والفنائم ، ثم قام بحفر بعض الآبار لتوفير المياه اللازمة لجيشه وبعد ان فرغ من ذلك جاءه الخبر بتعيينه حاكما على مصر ، فانصرف عن أفريقية بفنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر ، ووصل الى مصر في عام ٤٧ هجرية بعد أن عين عقبة بن نافع خلفا له وأوصاه باستئناف الفتح واعلاء كلمة الله في أرض المغرب .

الفصل الرابع
فتوح عقبة بن نافع الأولى

رأى عقبة بعد أن سلم له ابن حديج مقاليد افريقية أن يشرع فوراً في تنفيذ وصيته ، ولذلك جهز جيشه للغزو وانطلق به في خلال عام ٤٩ هجرية (٦٦٩ م) إلى ماعقل البيزنطيين واستطاع استرداد فزان وغدامس ثم انتقل إلى إقليم قموينة ليستعد للجولة الثانية . وبينما هو أخذ في الاستعداد وجد أنه من الأصوب أن يختط لنفسه خطة يسر عليها في الغزو تمكن للمسلمين في المغرب ولكيلا تكون غزواتهم بعد ذلك مجرد جلب الغنائم والسبايا ثم العودة ثانياً إلى مصر . بل لكي تكون هناك فتوح منظمة يستقرون بعدها في البلاد ، وبذلك يستطيعون أن ينشروا الإسلام على أوسع نطاق ، لأنه كان رجلاً شديد الإيمان تميل نفسه لنشر الدين لا مجرد الفتوح والانتصارات وما وراء ذلك من مكاسب وغنائم ، ولذلك عزم على أن يتخذ له قاعدة ارتكاز في قلب البلاد يخرج منها المسلمون بحملاتهم ويتخذونها عاصمة لهم ومركزاً يمدهم دائماً بالإمدادات .

واختار عقبة لإقامة هذه القاعدة قطعة من السهل الفسيح من إقليم قموينة جنوب قرطاجنة وهي تبعد عن مدينة تونس الحالية بحوالي مائة وأثنى عشر ميلاً وجمع أركان حربه وأطاعهم على ما استقر رأيه عليه . ثم استطرد قائلاً لهم : وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً وتكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر . »

وكان اختيار عقبة لهذا المكان اختياراً موفقاً من الناحيتين الجغرافية والاستراتيجية . فهو أولاً بعيد عن الساحل لا يتعرض فيه المسلمون لتهديدات الأساطيل الرومية ، « وثانياً » يستطيعون منه مراقبة أعدائهم لأنه ملتقى للطرق المتجهة نحو الشرق والغرب والجنوب .

وبدأ عقبة في بناء هذه المدينة التي عرفت في التاريخ بمدينة القيروان في عام ٤٩ هـ وانتهى من بنائها في سنة ٥٢ هـ (٦٧٢ م) وكانت تضم دار الإمارة والمسجد الجامع . وعلى مر الأيام عمرت بكثير من الدور والمساجد والمنشآت العسكرية واجتذبت المدينة عدداً كبيراً من البربر فأعلنوا إسلامهم وكونوا جماعة إسلامية بربرية ظلت تنمو وتكبر حتى أصبح أفرادها ركناً حاسماً في تحويل المغرب إلى الإسلام .

وكان عقبة في أثناء قيامه ببناء القيروان لايفتا يرسل الكتاب
لاخضاع ما حوله من القبائل المتمردة . وكان نتيجة لذلك أن بدأ الأمازيغ
شعرون بقوة المسلمين فأعلنوا إسلامهم وأخذوا ينتظمون في جيوش
المسلمين . وأصبحوا لهم عوناً كبيراً في أثناء تمام فتحهم للمغرب .

وما كاد عقبة يفرغ من تنظيم مدينته وتجهيز جيشه حتى قرر
في أواخر عام ٥٥ هجرية (٦٧٤م) الخروج إلى الغزو الواسع الكبير
ليدين المغرب كله للراية العربية الإسلامية ، وبينما يأخذ الأعباء لذلك
أدخلك عليه وهو في المسجد الأعظم رسول من قبل الخليفة معاوية
يلفغه عن خبر عزله عن الولاية وتعيين أبي المهاجر دينار خلفاً له وهو من
موالي مسلمة بن مخلد الانصاري حاكم مصر وقت ذاك نتيجة للوشايات
التي أقدم عليها مسلمة الذي كان يكن لعقبة شيئاً من الغيرة والذي
كان يطمع في ضم ولاية إفريقية لسيطرته لكثرة خيراتها .

وخرج عقبة من إفريقية بعد أن سلم مقاليد الولاية لأبي المهاجر
الذي قيل أنه أهداهن عقبة بايعاً من سيده مسلمة . فلما وصل عقبة
إلى دمشق شكاً إلى معاوية ما فعله معه خلفه وعاتبه على عزله قائلاً له :
« فتحت البلاد ودانت لي وبنييت المنازل واتخذت مسجداً للجماعة ،
وسكنت الناس » ثم أرسلت عبد الانصاري فأساء عزلي ! ؟

وقد اعتذر له معاوية عن عزله ووعده برده إلى عمله .

ولكن عقبة ظل مقيماً بدمشق ينتظر أن يفي معاوية بوعده له ليرده
ثانياً إلى ولاية إفريقية إلى أن مات معاوية وخلفه ابنه يزيد ، فعزل هذا
أبا المهاجر « ديناراً » وأعاد عقبة على المغرب للمرة الثانية كما سنفصله
في حينه . . .

الفصل الخامس

حملة أبي المهاجر دينار

ذكرنا أن مسلمة نجح في عزل عقبة وتعيين مولاة أبي المهاجر خلفا له . وكان أبو المهاجر من دهاة السياسة وهو في الوقت نفسه محب للفرز . فما كاد يطمئن على موقفه حتى عزم على الخروج الى الحسرب ومهاجمة القبائل المتمردة في موطنها الحصينة ، ورأى أن يصانع قبائل البرانس المتحضرة المواليين للروم ليضمهم تحت لوائه أو على الأقل ليضمن عدم انحيازهم لأعدائه ، وقد نجح في ذلك نجاحا كبيرا فدخل في طاعة المسلمين زعيم هؤلاء القبائل « كسيلة بن لزم الأوربي » وأعلن إسلامه هو ورجاله ، وانطلقوا جميعا مع المسلمين لذك حصن الرومان حتى انتهى بهم المطاف في مدينة تلمسان .

ثم عاد أبو المهاجر الى القيروان وقام بمحاصرة قرطاجنة وهاجمها هجوما شديدا في عام ٥٩ هـ (٦٧٨ م) ولم يرجع عنها إلا بعد أن نزل له الروم عن شبه جزيرة الشريك التي جنوب المدينة ، فاحتلها العرب ومنها بدعوا يشنون الحملات على قرطاجنة للقضاء على الروم نهائيا .

ودخلت سنة ٦٠ للهجرة وفي خلالها توفي الخليفة معاوية وظفر ابنه يزيد بالخلافة فكان أول ماعمله أن عزل أبا المهاجر دينارا وأعاد عقبة ابن نافع على الولاية للمرة الثانية .

الفصل السادس

فتوح عقبة بن نافع الثانية واستشهاده

عاد عقبة الى ارض المغرب وهو اشدّ تحمسا للفتح كما كان في المرة الاولى . فما ان تسلم الزمام من خصمه أبى المهاجر دينار (١) حتى جمع جيشه وجهزه للفرز ثم اجتمع برؤساء الجنود وحضهم على الصبر في القتال حتى تكون كلمة الله هي العليا وتعرف راية القومية في ارجاء المغرب كله .

ثم انطلق بالمسلمين ويصحبتهم جموع بربر اوربة « البرانس » وزعيمهم (كسيلة) بعد ان ترك على القيروان «زهر بن قيس البلوى» . ومضى في طريق الزحف كالسهم المنطلق الى مرماء في مضاء وتصميم وقصد للهدف لا يحدد عنه ولا يريم وغزا بهم مدينة باغاية . وانساب بعدها نحو الزاب في المغرب الاوسط ، ويبدو ان عقبة قد اساء الى بعض قبائل البرانس الامر الذي اقضب زعيمهم كسيلة وكان نتيجة لذلك ان دب الخلاف بين عقبة وبين كسيلة فانسحب الاخير برجاله من صفوف المسلمين .

وسرعان ما انقلب عليهم وارتد عن الاسلام ، وانضم اليه جموع كثيرة من الروم وبدأ معهم يشنون على عقبة الغارات ويعترضون طريق زحفه .

ولكن عقبة تمكن من الانتصار عليهم وسار في طريقه يفرز ويفتح الحصون حتى وصل الى بلدة (ويلي) وهناك اعترضه كسيلة ثانيا ، فظل يطارده ، وفي اثناء ذلك سقطت في يده مدينتا (اغماث و تيس) والاخيرة قرب دركالة ودخل في طاعة المسلمين قبائل جزولة ومصودة .

واخيرا انتهى به المطاف عند مدينة « ايفيران بطوف » على شاطئ المحيط الاطلسي . ثم قيل انه اندفع بفروسه نحو الماء حتى وصل الماء الى ركابه ورفع سيفه وقال مخاطبا الله عز وجل :

« اللهم فاشهد اني لو كنت اعلم ان وراء هذا البحر ارضا لخصنته غايزا في سبيك » .

(١) قيل ان عقبة قد اوثقه بالحديد كما فعل هو معه واصطحبه معه في غزواته وهو مقيد .

ثم التفت الى رجاله وقال :

« ارفعوا ايديكم ، ففعلوا ، واستأنف حديثه قائلا :

اللهم انى نم اخرج بطرا ولا اشرا ، وانك لتعلم انا نطلب الذى طلبه
عبدك ذو القرنين وهو ان تعبد ولايشرك بك شيء . اللهم انا معاندون
لدين الكفر ومدافعون عن دين الاسلام فكن لنا ولا تكن علينا ياذا الجلال
والاكرام » .

ويطيب لنا ان نقف برهة عند هذه الكلمة التى ذكر فيها عقبة اسم
ذى القرنين وهو الاسكندر الاكبر (١) والتى اشار فيها الى ان دعوة
الاسلام تشبه رسالة الاسكندر ذلك لان الاسكندر اراد ان يجمع العالم
فى امة واحدة يسودها السلام ، اذ ان عقبة كان يفهم ان رسالة الاسلام
لم تكن للاغارة والسلب ، وانما هى رسالة سامية تهدف الى عبادة الله
دون سواه ، وعند ذلك يسود السلام بين الناس ، فلقد كان اختلاف
العقائد ومازال سببا فى اختلاف العقول ، وكثيرا ماتطور هذا الخلاف
فاشعل البغضاء واوقد الحروب . وماذكر الحروب الصليبية عنا
بمعيد .

ويقرب الشاطيء راء عقبة ان ينصب معسكره لياخذ لجنده
قسطا من الراحة وحتى يعيد تنظيم صفوفهم استعدادا لغزو الجنوب .
وبينما هو مشغول فى ذلك اذ سرعان ماتوقف وامر الجيش
بالعودة بسرعة نحو القيروان لان اخبارا قد بلغت ان كسيلة وجموع
الروم يستعدون لضربه من الخلف .

وعبر بالجيش وادى ام ربيع فى طريق عودته مخترقا ارض المغرب
الواسط ويبدو انه اراد وهو فى طريقه ان يقضى على جيوب المقاومة
التي اقامها كسيلة فى مختلف النواحي ، لذلك قسم الجيش قسمين :
قسما ذهب جنوبا بشرق ، والقسم الآخر وكان عدده حوالى خمسة
آلاف فارس اتجه هو بهم نحو مدينة «تهودة» لغزوها لتكون قاعدة
ارتكاز للمسلمين فى منطقة جبال الاوراس .

(١) عند حضوره الى مصر رار معبد اله « آمون » بسيوة وكان هذا تمثله
الفراعنة فى بعض الاحيان على هيئة كيش يتشرون ، فاعان الاسكندر انه انحدر من
سلبه فسمى « ذو القرنين » نسبة الى آمون ذوى القرون .

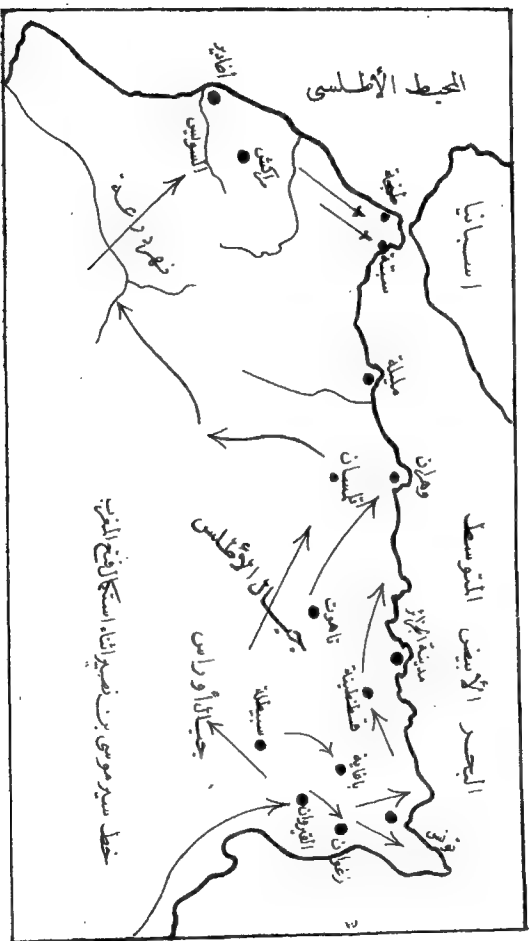
وبينما هو زاحف اليها في خلال عام ٦٣ هجرية (٦٨٣ م) اعترض طريقه كسيلة بخمسين ألف محارب ودارت بين الخصمين معركة غير متكافئة وظهر عقبة بطولة منقطعة النظر ، ولما أدرك أن الدائرة ستدور عليه لكثرة مالهدي عدوه من الجنود بعث في طلب أبي المهاجر دينار وأمر بفك وثاقه وقال له : «انطلق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا اغتنم الشهادة» .

وسمع أبو المهاجر أمره ودعته نخوته العربية ووجه لنصرة الوجدانية أن يقاتل بجوار سجانه في سبيل تحقيق الهدف ونشر العقيدة السمحة الكريمة ورد عليه قائلا: أنا أيضا أريد الشهادة .

وانطلق البطلان شاهرين السيوف وظلا يقاتلان جنبا الى جنب حتى سقطا شهيدين وسيفاهما في أيديهما .

ووقع خبر استشهاد عقبة في القيروان وقوع الصواعق فقرر واليها في الحال « زهير بن قيس » الانسحاب الى برقة قبل أن يزحف اليه كسيلة ويقضى عليه .

وخلال الميدان لكسيلة فاحتل القيروان ، وهكذا اسفر ذلك الحادث عن ضياع تلك الانتصارات الجبارة بعد صراع دام أكثر من أربعين عاما في سبيل فتح المغرب ، ولكن بالرغم من ذلك فإن المسلمين لم يفقدوا كل شيء . فانهم - وإن كانوا قد خسروا سياسيا - قد كسبوا دينيا بما تركوه وراءهم من الآلاف المؤلفة من البربر الذين اعتنقوا الاسلام عن عقيدة راسخة . والذين لم يلبثوا أن ثاروا في وجه كسيلة انتقاما لمقتل عقبة . وظلوا يناوئونه حتى دخل المسلمون ثانيا المغرب وسامدوهم ضده الى أن قتل ، وذلك في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان كما هو مفصل بعد .



الفصل السابع

حملة زهير بن قيس البلوي واستشهاده

مكث زهير مرابطا في برقة بعد استشهاد عقبة حوالي ستة أعوام حتى سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) . خلالها مات الخليفة مروان بن الحكم وقام بالامر بعده ابنه (عبد الملك) ، فظل زهير يستنجد به لامداده بالجنود لمعاودة الغزو على الرغم من انهماك عبد الملك في اخماد الثورات التي قامت في العراق والحجاز فقد عز عليه ضياع المغرب من ايدي المسلمين وقرر ارسال نجدة كبيرة لزهير لانتزاعه ثانيا من كسيلة والروم . وقال لصحابته : « لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر الا زهير وهو مثله ديننا وعقلا » .

فوافقوه على ذلك واتبعوا موافقتهم قولهم : « انه صاحب عقبة واعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه » .

ووصلت النجدة الى برقة وبدأت في الزحف الى القيروان . وفي موضع يقال له « ممس » بين القيروان وتبسا التقى زهير بكسيلة ودار الصراع بينهما وكثر القتل بين الفريقين وظلوا كذلك حتى اذا بدأت الشمس في الغروب نصر الله عباده المؤمنين وانهزم كسيلة ولحقه بعض المسلمين في اثناء هروبه فقتلوه شر قتلة هو ورؤساء جنده وأشراف الروم ، وعاد زهير برجاله المنتصرين الى القيروان محملا بالفنائم والاسرى ، وبذلك اكسرت شوكة اهل البرانس وقضى المسلمون على مقاومتهم وانتقموا لمقتل البطل الشهيد عقبة بن نافع .

وبعد هذا النصر قرر زهير العودة الى مصر . وماكاد يصل الى برقة حتى علم بفارات الروم عليها وسبى الكثير من اهلها ، فانطلق الى الساحل طمعا في أن يدرك الروم قبل ابحارهم الى صقلية ويستخلص من ايديهم سبايا المسلمين وغنائمهم ، ودارت بينه وبين الروم معركة طاحنة انتهت باستشهاده رحمه الله . وهكذا اتضح للمسلمين أن الاستيلاء على المغرب كله لا يتم الا بالقضاء على الروم أولا .

الفصل الثامن

غزوات حسان بن النعمان

مضى على «استشهاد زهير نحو أربع سنوات توقف فيها غزو المغرب لشغل عبد الملك بن مروان بكثرة الخارجين عليه وعلى رأسهم عبد الله ابن الزبير . فلما أمّانه الله عليهم واتحدت الدولة الإسلامية على يديه كما سبق بيانه . عزم على استئناف فتح المغرب فتحاً تاماً ، ولذلك أعد جيشاً ضخماً بلغ تعداداه كما يقولون أربعين ألف مقاتل وأمر عليهم القائد الشجاع « حسان بن النعمان الغساني » وقال له : « اخرج الى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه » .

وخرج حسان بجيشه في سنة ٧٤ هجرية الموافقة لسنة ٦٩٣ م قاصداً مدينة قرطاجنة مركز تجمع الروم وقاصدتهم البحرية الكبرى . وانضم اليه كثير من البربر المواليين للإسلام والمعتنقين له . فكانوا عدة له فدخل بهم مدينة القيروان دخول الفاتحين .

ولما أراح الجنود وجههم للزحف العام انطلق بهم الى قرطاجنة فحاصرها حصاراً شديداً وقاتل الروم بعناد حتى نال منهم كل منال ، ومن نجا من القتل منهم ركب البحر هرباً الى صقلية . ودخل حسان قرطاجنة فقتل وسبى أهلها . ثم أمر بتخريبها وتدميرها حتى لا تكون حصناً بعد ذلك فخربت عن آخرها .

وتم في أعقاب ذلك غزو معقلين للروم على ساحل البحر الأبيض وهما « بنزرت وسطفورة » . ثم مدينة باجة . وعاد حسان بعد ذلك الى القيروان ليتفرغ لتنظيم شؤون البلاد التي فتحها . وماكاد يأخذ الأهبة لتنفيذ ذلك حتى واجه ثورة جامحة تزعمتها امرأة شديدة المراس هي الكاهنة « داهيا بنت مائة بن تيفان » ملكة جبل اوراس . وقبيلتها تنتسب الى قبائل جراوة أشد قبائل البتر قسوة وجراة وقد التف حولها الوف من البربر بعد مقتل زعيمهم كسيلة ، وقد انتشرت حول هذه المرأة معجزات خرافية جعل الكثير من البربر ينضمون اليها ويأتونهم بأمرها وانطلقوا خلفها يعاودون حياتهم الهمجية الأولى في السطو والنهب .

وأمام هذا رأى حسان أن يزحف الى مقر هذه المرأة لكسر شوكتها قبل أن يستفحل أمرها ، وقال له زعماء المسلمين من البربر :

« ان قتلها لن تختلف عليك البربر . بعد ذلك » فسار اليه
فلما بلغها زحفه قامت بهدم حصن باغاية ظنا منها انه يريد الاستيلاء
على الحصون ولكن «حسانا» خيب ظنها وانطلق اليها في مكنها وبالقرب
من موضع قسنطينة الحالية اقتتل معها في معركة حامية دارت الدائرة
فيها على المسلمين . وامر جماعة كثيرة منهم (اطلقتهم الكاهنة بعد
ذلك) « سوى خالد بن يزيد القيسي وكان شريفا شجاعا فاتخذته
الكاهنة ولدا » .

وامام ذلك تراجع حسان الى الورا سريعا حتى لايقطع عليه
انتصار المرأة خط الرجعة . ثم اخلى مدينة القيروان وانسحب الى برقة .
وهكذا انحر الاسلام مرة اخرى عن تونس وما جاورها من بلاد
الاطلس .

وبينما كان حسان مقيما في برقة وطرابلس يقضي وقته في بناء
المنازل لجنده وهى المنازل التى سميت بعد ذلك بقصور حسان كان
الروم قد احتلوا مدينة قرطاجنة . والكاهنة من جانبها تقوم بهدم
الحصون والمدن ليقينها بانها السبب الذى يدفع العرب لغزو المغرب .
وقالت في تبرير ذلك : « يريد العرب البلاد والذهب والفضة . ونحن
انما نريد المزارع والمراعى . ولا ارى الا ان اخرب افريقية حتى يئسوا
منها » وقد كان هذا سببا جعل السكان ينفضون من حولها . وتمنوا
حكم العرب الذى يتميز بالعدل وسيادة القانون والنظام ولايبلغ بقادته
المسلمين من العسف مايبلغ بهذه الحاكمة الطاغية .

ومضى على تلك الاحداث نحو اربع سنوات . كان حسان خلالها
يلج على الخليفة فى ارسال مدد اليه ويستحثه بقوله : « ان امم المغرب
ليس لها غاية ولايقف احد منها على نهاية . كلما بادت امة خلفتها امم . »

واستجاب الخليفة لتوسلات حسان فبعث له المدد والاموال
فاكتمل لحسان جيش كبير . فقرروا الحال الزحف لمقاتلة هذه المرأة
ثانيا فاما نصر نهائى واما استشهاد فى سبيل الله .

وانطلق حسان بالمسلمين من برقة في خلال عام ٨١٠ م من الهجرة
(٧٠١ م) واجتاح المناطق في سهولة ويسر وقابله اهل البلاد بالترحيب
وقدموا له الطاعة لانهم كانوا راغبين عن حكم الكاهنة التى انزلت بمدنهم
الخراب والدمار .

وفى اثناء عبور حسان لمنطقة جبل اوراس وجد نفسه فجأة امام

جيوش عدوته فالتحم معها في صراع مرير وصمدت له وجرت الدماء انهارا . وخيل للناس أن القيامة قد قامت ، ولما أدركت الكاهنة أن هزيمتها محتومة « بعثت بولديها ليستأمننا حسانا ، فأمنهما » وقيل : أنه ولي كلا منهما على ستة آلاف ممن استأمن من البربر والأفارقة على حين أنها ظلت تواصل القتال لحماية مؤخرتها لتتمكن من الهروب إلى الجبل ، ولكن حسانا أفسد عليها خطتها حين التقى بها عند «بئر الكاهنة» وشاء الله ألا يدخل حسانا وجنوده في هذه المرة فانتصروا عليها وقتلوها وبقتلها انتهت كل مقاومة للبربر ، وكانت هذه آخر ثورة لهم ضد المسلمين ، بعدها أخذوا يدخلون في دين الاسلام أفواجا وجماعات وينتظمون في صفوف اخوانهم العرب المسلمين .

كان الروم خلال هذا الصراع قد استطاعوا بقيادة البطريق يوحنا احتلال قرطاجنة كما أسلفنا ، فلما فرغ حسان من أمر الكاهنة اتجه اليهم يؤازره أسطول بحري قدم من الشام ومصر لمساعدته ، وحمل عليهم في البر والبحر حتى طردهم من قرطاجنة ، وكانت هذه آخر مرة يرون فيها المدينة ، وبذلك قضى حسان على أكبر القوى الضاربة للرومان فما عادوا بعدها في المغرب يشكلون خطرا داهما ولا أصبح لهم قوة عسكرية مدمرة .

ثم اتجه حسان بعد ذلك إلى تنظيم البلاد على نحو ما هو قائم في مصر والشام وفي ذلك يقول المؤرخ ابن عذارى :
« وفي هذه السنة (٨٢ هـ) استقامت بلاد افريقية لحسان بن النعمان ، فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم افريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية » .

ثم قام ببناء مدينة تونس ومسجدها وكانت لا تعدو بلدا أو قرية صغيرة وقام بتحصينها حتى لا يفاجئه الروم من البحر وهي في الوقت نفسه تشرف على قرطاجنة ، وأخذ يوجه جهوده نحو القيروان ، فوسع فيها وجدد بناء المسجد الجامع وانتهى من انشاءاته في سنة ٨٤ هجرية الموافقة لسنة ٧٠٣ ميلادية ، وكان أهم عمل له في افريقية بعد ذلك هو سعيه المتواصل لنشر الاسلام وتأليف القلوب . كما أشرك معه البربر في حروبه التي وصل فيها إلى طنجة ، وجعل لهم نصيبا من الغنائم ، ورتب لهم العطايا مثلهم مثل اخوانهم العرب وبذلك حبب البربر في الاسلام ، وخطا الألوف منهم نحو خير الوحدةانية فعزتهم بعد ذلة ، وجمعتهم بعد فرقة ، وهدتهم بعد ضلالة ، وأصبحوا بعد أن حاربوا الاسلام ، جنودا له

مؤمنين بمدله مطبقين تعاليمه مستضيئين بنوره « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهdy به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » .

وهكذا استطاع حسان أن يحول بلاد المغرب كلها الى ولاية اسلامية قلبا وقالبا وأصبحت كلمة المغرب الاسلامى تدوى فى أسماع العالمين .

تم ذلك كله فى عهد هذا القائد العربى العظيم الذى لم يقدر لسياسته هذه أن تطول ، اذ أن عبد العزيز بن مروان (صاحب مصر) قام بعزله ، وقيل : أن نزاعا حدث بينهما ، فأخذ عبد العزيز يضيق عليه الخناق ويحد من سلطته ونشاطه فى المغرب ، فلم يجد حسان بدا من اعتزال منصبه والرحيل الى دمشق تاركا أمر المغرب لموسى بن نصير .

الفصل التاسع

غزوات موسى بن نصير

غادر موسى بن نصير مصر على رأس قوة ضاربة متجهة الى المغرب ليتولى امره ، وبشبت دعائم الاسلام فيه وينشره بين بقايا العناصر البربرية والرومانية المتمردة التي ما فتئت تناوى المسلمين وتشن عليهم حرب العصابات .

وما ان وصل مدينة القيروان بصحبة اولاده « عبد الله وعبد العزيز ومروان » واولاد الشهيد عقبة بن نافع « عياض وعثمان وأبي عبيدة حتى اتخذ لنفسه خطة يسير عليها في غزواته تضمن له النصر في زمن قليل ، وهي أن ينشر أجنحته في جميع أنحاء المغرب وبخاصة في أقاليمه الشمالية ، ليأخذ البيعة من جميع أهله في وقت واحد .

وكانت أولى ضرباته متجهة الى المتمردين في قلعة « زغوان » القريبة من القيروان ، فبعث اليهم بفرقة من خمسمائة فارس أمكنهم أن يضربوهم الضربة القاضية ويأخذوا البيعة ممن استسلم منهم .

ثم بدأ موسى بعد ذلك في تنفيذ خطته فقسم الجيش الى عدة اقسام :

القسم الاول : قاده ابنه عبد الله بن موسى ، وانطلق به الى أماكن العصاة حول تونس فأخضعهم وسبى منهم سبياً عظيماً .

القسم الثاني : بعث على رأسه ابنه مروان بن موسى وزحف به نحو الأماكن القريبة من الساحل ، فانتصر على فلول الروم وأنصارهم من البربر وغنم غنائم هائلة .

القسم الثالث : عين عليه موسى أولاد الشهيد عقبة ووجههم الى مدينة سجوما للانتقام من رجال القبائل الذين اشتركوا في هزيمة والدهم ومقتله ، وقد حاللهم التوفيق فائخنوهم بالطعنات ولم يتركوهم الا بعد أن أقتوهم جميعاً وعلى رأسهم « ستمائة » رجل هم قادة أمرهم .

القسم الرابع : توجه به موسى بصحبة كبار القواد عياض بن أخيل والمغيرة بن أبي بردة وزرعة بن أبي مدرك ، وظل يذرع به أماكن الشائرين شمالاً وغرباً وجنوباً حتى استطاع أن يقضى على بقايا الحاميات الرومية وأنصارها ، وكان قضاؤه شديداً مروءة ، فلاقى بعض العصاة من قبائل

هوادة وزنانة وكثامة وصنهاجة وغيرهم من ثوار البتر والبرانس على يديه اشد انواع التنكيل مما جعل السكان يتسابقون في الخضوع له ، ويهرعون اليه معلنين اسلامهم ليأخذوا مكانهم في جيوش الغزو لينالوا الغنائم وثواب الله على اعلاء كلمته وتثبيت وحدانيته .

ولم يفت موسى في اثناء ذلك أن يبعث ببعض الغنائم النفيسة والسبايا الجميلات الى مولاه عبد العزيز بمصر ، ثم للخليفة عبد الملك ويقول المؤرخ الدينوري في ذلك : « واهدت لعبد الملك جارية افريقية اهداها اليه موسى بن نصير عامله على أرض المغرب وكانت من أجمل نساء دهرها ، وكانت اثيرة لدى عبد الملك » .

وهكذا نجح موسى بن نصير في ارضاء الخليفة فزال بذلك ماكان يحمله له من احقاد .

اجتمع لموسى بن نصير بعد تلك الانتصارات آلاف من فرسان البربر الشجعان انضموا اليه عن طواعية ، وكان منهم فارس مؤمن صادق الايمان ذلك هو طارق بن زياد الليثي الذي اظهر من الاخلاص لدعوة الاسلام مااسترعى انتباه موسى بن نصير فقربه اليه وقدمه على من عداه من كبار القواد ، وقد اختلف الرواة في نسب طارق فلاكثرون يقولون انه بربري ، وانه مولى موسى بن نصير ، وقال آخرون : انه فارسي والواقع أن أمر طارق لايحتمل خلافا ، فهو بربري انحدر من أصلاّب قبيلة عربية اختلطت دملؤها بدماء الوندال الذين سكنوا المغرب في عام ٤٢٩ بعد مولد المسيح .

وقد كان طارق ابيض الوجه اشقر الشعر ، ازرق العينين . حتى ان بعض المؤرخين المحدثين يعدونه جرمانى الاصل اكثر منه افريقيا .

كان لابد لموسى وقد اجتمع له هذا الجيش البربري الجرار الذي بلغ عدده حوالى اثني عشرالف فارس جمعتهم مع العرب صفات البداوة والقطرة وحب الغزو في سبيل الله أن يفتح لهم مجالا للغزو والا اقلت منه زمامهم ، لذلك ماكد ينتهى من تدبير شئون المدن التى طهرها من المتمردين حتى سرعان ماقادهم جميعا بصحبة جيشه العربى البالغ « سبعة عشر ألفا » الى ميادين المغرب الاقصى لاختضاع النافرين واعادة الأمن الى نصابه في تلك الجهات .

وظل معنفا في زحفه يضرب ذات اليمين وذات الشمال لاتصدّه حصون ولاتقف في سبيله عقبة حتى اجتاز نهر درعة لأول مرة في تاريخ

الفتح العربى لافريقية ، وبلغت جيوشه السوس الاقصى فى تلك البقعة
التى لم يصل اليها اى فاتح اجنبى غيره .

وبعد ان اخذ موسى الطاعة من الاهالى استأنف زحفه الخاطف
نحو المدن التى على شاطئ المحيط الاطلسى ، واتجه الى طنجة وهى فى
ذلك الوقت اعظم بلاد المغرب حضارة ، فبلغها فى خلال عام ٨٩ للهجرة
(٧٠٧ م) فوجدها حصينة قوية ففرض عليها الحصار ، وكان الحصار
شديدا جعل حاكمها البيزنطى « اخيلا » يهرع الى موسى معلنا خضوعه
وقيل : انه اعتنق الاسلام لينقذ اهله من السبى .

نصر مابعدة نصر لم يقنع به الفاتح الكبير ، بل انطلق ثانيا كالريح
نحو حصن (سبنة) الرومانى لياخذ الطاعة من حماه فاستعصى عليه
كما استعصى على عقبة بن نافع من قبل ، فحاصره وكان حاكمه يدعى
الكونت جوليات اوليان النصرانى كما سماه العرب ، وكان تابعا بالاسم
ليزنطة ، ولما بدا العرب فى غزو المغرب وقضوا على قوة يزنطة
العسكرية فى مختلف الميادين اتجه يليان الى ملوك اسبانيا ليحموه من
خطر الغزو الاسلامى ، فكانوا يمدونه بالعون عن طريق البحر ، وقيل :
انه كان يمت بصلة النسب للملك فيطشة ملك اسبانيا فى ذلك الوقت .

ولما طال الحصار حول الحصن وهجز موسى عن فتحه رأى أن
يتركه ويرجع الى طنجة حتى يؤمن الطريق خلف المسلمين ومن هناك
اخذ يشن عليه الحملات ، ولكنه لم يستطع أن ينال منه وطرا نظرا لما
كان يأتى يليان من المدد الاسبانى .

واخيرا قرر موسى الرجوع الى القيروان التى طال غيابه عنها تاركا
القائد الشجاع طارق بن زياد على طنجة ومعه « تسعة عشر ألفا » من
فرسان البربر والمسلمين وقلة من فقهاء العرب ليعلموهم فرائض الدين
واصوله ، وعهد اليه بالعمل على خضاع قبائل غمارة وبرافوطة القاطنة
حول طنجة . ثم كلفه مراقبة سبنة وانتهاز الفرص لغزوها وتحطيم
شوكتها .

غادر موسى طنجة واتجه الى القيروان حاضرة المغرب الاسلامى
لتدبير أمر المدن المفتوحة ونشر الدين بين القبائل والاجناس . ونجح فى
ذلك نجاحا كبيرا ، واستطاع بما له من دراية واسعة فى قيادة الجماهير
ونباهة فى ادارة السلطنة كما يذكر المقرئ أن يمزج الاجناس بعضها ببعض
واحسن المعاملة ، وطبق حكم المساواة لا فضل لاحد على آخر الا بالتفانى

في الجهاد في سبيل الله واعلاء وحدانيته واقامة الحدود ، فرغب الناس في الاسلام ، واستجابوا لندائه الذي يقرع الاسماع على اختلاف عقائدها، ويدعو الى الصلاة . فكانما كان هذا النداء وهذا الاذان فيضا عجيبا من الله فتفتحت به اسماع اهل المغرب وتظهرت ارواحهم ، واستجابت نفوسهم للدعوة الحق والايمان ، الدعوة التي تؤلف ولا تمزق ، وتوحد ولا تفرق ، وتصلح في الارض ، لا لتفسد بين الناس . وقد صنعت هذه الدعوى في القلوب فوق ما يصنع السحر ، فتدفق سيل الداخلين في الاسلام من اهل المغرب منبهرين بتعاليمه السمحة وصفحه الجميل وعفوه السابغ . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور . . »

وبهذا اخلت اللغة والثقافة العربية تنتشر بسرعة واصبح الفتح الاسلامي للمغرب فتحا عسكريا ومعنويا في آن واحد ، اذ ضمن انتقال شعب البربر من حكم الروم المستعمرين الى حكم اخوانهم العرب المسلمين . ومن ديانة الشرك والتثليث الى ديانة الاسلام والتوحيد حتى أصبح المغرب بمثابة الجناح الغربي للامة العربية الاسلامية التي تمتد حدودها من الخليج الى المحيط .

القسم الرابع

موسى بن نصير يستأذن الخليفة في فتح اسبانيا



الفصل الاول

مقدمات فتح الأندلس

بينما كان موسى بن نصير يبعث الكتائب بصحبة الفقهاء الى مختلف اماكن القبائل القاطنة فى جوف البلاد ليأخذوا البيعة منهم ويفقهوهم فى الدين الجديد ، كان طارق بن زياد قد حاول مرارا غزو سبتة ولكنه لم يستطع ، وقد رأى حاكمها يليان من محاولات طارق المتكررة على مهاجمته أنه واقع فى يده فى يوم ما نظرا لما يتجمع لطارق كل يوم من الرجال الذين يهرعون اليه للانضواء تحت لوائه ، فعزم على مصانعة (طارق) والدخول معه فى الصلح ليأمن شره ، وكان أن اتصلت بينهما الاسباب ، ونجحت مفاوضات الصلح بينهما .

ولسنا نعلم شيئا عن الاساس الذى قام السلام عليه بين الجانبين ، وكل ما نعرفه أن طارقا حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع فاكفى بمودة صاحبها عسى ان يستعين به على اخضاع من هم تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون .

وكان طارق سياسيا بارعا فبادل يليان ودابود ، وفى هذه الاثناء مات (غيطشة) ملك اسبانيا والعون الاكبر ليليان فى الدفاع عن مدينته واغتصب عرشه القائد القوطى (رودريجو) أولدريق كما سماه العرب وشئت شمل ورثته الشرعيين (اولاد غيطشة) وتنفيذا لما كان بين غيطشة ويليان من عهد اراد الاخير مساعدة اولاد حليفه ليجلسوا على عرش ابيهم ، ولكنه عجز عن ذلك ، فوقف فى مدينته (سبتة) يرقب الاحداث ، وكان لا يفتأ يدبر المؤامرات لخلع لدريق .

وفى اثناء ذلك جاءه الخبر بأن ابنته (فلورندا) أو (كافا) كما عرفها العرب التى كانت تعيش فى قصر اسبانيا لتتأدب بأداب الملوك كما جرت بذلك العادة وقتئذ ، وهى قيام امراء الاقاليم وخلفاء الملوك بارسال بناتهم واولادهم الى بلاط الملك بطليطلة لهذا الغرض - قد اغضبها الامبراطور (لدريق) وأهدر شرفها ، فعزم يليان على الانتقام منه بأى ثمن حتى لو كان فى ذلك تحريض المسلمين على غزو اسبانيا النصرانية ومساعدتهم ، وقد آثر ان يكتم هذا فى نفسه حتى يسترد ابنته وقال فى ذلك لاهله فى رواية المؤرخ ابن عبد الحكم : « لا أرى له عقوبة الا أن أدخل عليه العرب » ، وبعث لطارق سرا بهذا الخصوص قائلا : انى مدخلك الأندلس .

وكان ان غادر مدينته وعبر البوغاز الى اسبانيا وذهب لمقابلة الدريق .
وذكر ان للدريق استغرب حضوره في هذا الوقت (وقت الشتاء) ،
فتعلل يليان بقصة ابتكرها من وحى خياله ، وهي انه لم يحضر الا تحت
الحاح زوجته المريضة التي اوشكت ان تموت وتلهف على رؤية ابنتها
قبل ان يدرکہا الموت ، ورجاه ان يأذن لابنته بالرحيل معه لزيارة امها
المريضة ، فتأثر الدريق ووافق على سفرها معه بعد ان منحها هداياه
الملكية ، واخذ عليها العهد بكتمان امره معها كما انعم على والدها بفيض
من برة وعطاياه .

وانقلب يليان راجعا بصحبة ابنته وعندما ودع للدريق يليان
قال له ما معناه .

« اذا قدمت علينا ثانيا فتخير لنا من الشذائكات (نوع من طيور
الصيد) التي لم تزل تطرفنا بها فانها آثر جوارحنا لدنيا » فأجابه
يليان :

« ايها الملك وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذائكات مداخل
عليك مثلها قط » .

وكان يضم بهذا ما استقر رأيه عليه من مساعدة المسلمين لغزو
اسبانيا لخلعه انتقاما منه وتشفيا فيه .

وهنا يقلب علينا الظن ان السلام الذي قام بين يليان وطارق
كان من ضمن دوافعه تلك الحادثة التي وقعت قبل اتصال الرجلين
احدهما بالآخر ، تلك التي دفعت يليان عند وصوله الى (سبتة) مع
ابنته بأن يبعث لطارق ويحضه على فتح الاندلس واعدا اياه بالمساعدة
وتقديم السفن اللازمة لنقل جنوده الى الشاطئ الآخر على ألا يتعرض
للاغارة على حصنه ويتركه لشأنه سيدا عليه ، وقبل طارق العرض وبدأ
يعمل له كما هو موضح بعد . ووصل يليان الى حصنه (سبتة) وتقابل
مع رسل أولاد (غيطشة) وعرض عليهم مانواه للامبراطور للدريق
فوافقوا على ما اضمن ونوى وفوضوا له العمل آملين ان يكون في ذلك
فاتحة خير لاعادة العرش المقتصب الى وراثته الشرعيين (أولاد غيطشة) .

وذهب (أخिला) حاكم طنجة السابق الذي دخل في ذمة المسلمين
يبلغ طارقا ما اتفق عليه المتآمرون من دعوته لغزو الاندلس وأن أعوانهم
بالشاطئ الآخر منتظرون عبوره لمعاونته وانهم اتفقوا على الفدر بالدريق
يوم المعركة الفاصلة بينه وبين المسلمين .

ووافقهم طارق على ذلك وعاد أخيراً يبلغ يليان موافقته ، فعزم يليان على مقابلة طارق والاتفاق معه على خطة الغزو ، وانطلق اليه وهو واثق من نجاح مؤامراته ضد للدريق خصوصاً ان الاخبار قد وصلتته قبل مفادرة سبته بأن للدريق قد ذهب الى اقليم (بنبلونة) في أقصى الشمال لاختضاع انصار أرلاد (غيطشة) الذين لم يقد لهم سبيف منذ ان اغتصب للدريق العرش من أصحابه ، وكان اللقاء بين الرجلين يبشر بالنجاح ، فسرعان ما اتفقا على العمل معا .

واستقر الرأي على أن يذهب يليان الى موسى بن نصير لعرض الامر عليه وأخذ موافقته .

ومضى يليان من فوره ووصل القيروان في خلال عام ٩٠ للهجرة الموافق لعام ٧٠٨ الميلادي وأخذ يحبب موسى في فتح الاندلس ويسهل له كل صعب ويصف له محاسنها وما تحويه من الخيرات والكنوز ويكشف له مواضع الضعف في حصونها وقد عاهده على الانضمام بجانبه مع جميع ما يلزمه من العدد والعتاد حتى يعبر العرب الى الضفة الاخرى .

ورضى موسى ، ولكنه أراد ان يقف على مدى اخلاص يليان لهذا العرض فابتدعه قائلاً :

« ومن أين ان اتيقن صدق نياتك ؟ »

فقال يليان :

« كلفني شيئاً أثبت لكم فيه معشر العرب اننى صادق فيما عرضت » .

فطلب منه موسى أن يقوم بغارة على شواطئ الاندلس ليكون ذلك بمثابة اعلان الحرب على للدريق من ناحيته .

ونفذ يليان الامر وقام رجاله بغارة خاطفة على اسبانيا عادوا بعدها محملين بكثير من الغنائم ، الامر الذى طمأن موسى وشجعه على الاقدام على الفتح .

وكان لابد لموسى بن نصير أن يبعث للخليفة (الوليد بن عبد الملك) وقتئذ يعرض عليه الامر ويستأذنه في الغزو ، فرد عليه الوليد بقوله :

« خضها - أولا - بالسرايا (يعني بقلة من الجنود) حتى ترى
وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال »

ورد عليه موسى يقول :

« انه ليس يبحر زخار وانما هو زقاق يستبين للناظر ما وراءه »

فنصح الخليفة ثانيا : بأن يكتشفها بنفر قليل من الفرسان قبل
مغامرته بجيشه الكبير .

واخذ موسى بن نصير يستعد لارسال فرقة صغيرة من الجنود كأمر
الخليفة لاستطلاع احوال الاندلس ٥ وبعث يخبر يليان بالامر فأظهر هذا
فرحه ووضع سفنه الاربع على استعداد لنقل المسلمين ومساعدتهم في
العودة ثانيا .

الفصل الثاني

الغزوة الصغرى

واختار موسى بن نصير للقيام بهذه المهمة واكتشاف الاندلس أحد قواد العرب المشهورين بالأقدام هو « أبوزرعة طريف بن ملوك الماعفرى » وزوده بكتيبة من الفرسان عددها أربعمائة فارس سار بهم الى (سبتة) ، وهناك وجدوا في انتظارهم يليان فأركبهم السفن مع نفر من رجاله ، واجتازت بهم مضيق جبل كالى « جبل طارق بعد ذلك » ثم نزلوا في جزيرة (بالوماس) على مقربة من الموضع الذى أنشئت فيه بعد ذلك بلدة طريف والتي تسمى اليوم « رأس طريف » وقد كان في استقبالهم أعوان يليان وأولاد فيطشة لمعاونتهم وحراسة مؤخرتهم وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٩٣ هجرية (يوليو سنة ٧١٠ م)

وانطلق الفرسان العرب بجويون الشاطئ الجنوبى للاندلس ويستولون على كل ما صادفهم من كنوز الارض وفتياتها الحسان دون أن يجدوا أمامهم ما يصددهم أو يعرقل سير غزوتهم الصغرى .

وعاد الجنود سالمين ، وبعث طريف الى موسى بنتائج مغامرته ونصيبه من الغنائم التى كانت فريدة فى نوعها جعلت موسى يصير على امتلاك الاندلس مهما كان الثمن ، واستقر رأيه على ارسال جيش كبير لغزوها بقيادة صفيه البطل المقدم طارق بن زياد .

ونحب وقد أصبحنا قاب قوسين من أسبانيا أن نقول كلمة عنها حتى يستطيع القارئ الكريم أن يلم المامة سريعة بحالتها قبل الفتح العربى لها .

القسم الخامس

اسبانيا والشعوب التي حكمتها قبل الفتح العربي

الفصل الاول

اسبانيا واليهود

تطل اسبانيا من الجهة الشمالية الغربية على المحيط الاطلسي ، ومن الناحية الشرقية الجنوبية على البحر الابيض المتوسط ، وهى مثلية الشكل تقريبا وتعتمد على ثلاثة أركان . الاول : فى الشمال عند خليج غفونيا على المحيط حتى (حصن لك) والثانى : من الغرب عند (شلنت ياقب) بأقليم جليفية حتى (شلب) ، والثالث يبدأ من الجهة الشرقية الجنوبية عند (برشلونة) تقريبا الى بوغاز جبل طارق .

ويفضل شمالي اسبانيا عن فرنسا جبال البرنات واصل سكانها القدامى مزيج من (السلت) و (الايبريين) وقد نرح اليها فينيقيا فى خلال القرن العاشر قبل الميلاد وأسسوا على شواطئها الجنوبية عدة مدن منها (قرطاية) أو (قرطاجنة) .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد أيضا استقر على سواحلها اليونانيون وشيدوا جملة مستعمرات وأطلقوا عليها : اسم (ايبيريا) ثم تداول هذا الاسم فعم شبه الجزيرة كلها (اسبانيا والبرتغال الآن) .

وفى خلال القرن الخامس المذكور استطاع الفينيقيون السيطرة على اسبانيا وازدهرت فى عهدهم مدينة قرطاجنة وأخيرا سقطت اسبانيا فى أيدي الرومان الغربيين حوالى ٢٠٦ قبل مولد المسيح عليه السلام .

ومكثت اسبانيا ثن تحت وطأة الإمبراطورية الرومانية عدة قرون ولما سقطت روما تطلع بعض حكام الأقاليم الى الانفراد بحكم أقاليمهم وكان القائد (الأريك) زعيم فرقة القوط الغربيين أشدهم نزعة للسيطرة فاستطاع أن ينشر نفوذه على مدينة روما ثم خلفه (أطاوولف) فسار على نهجه ، واستولى على بعض الأقاليم الجنوبية فى فرنسا ، ومن هناك تطلع الى امتلاك اسبانيا ، فزحف اليها بجيشه ودارت بينه وبين سكانها القدامى ومن معهم من قبائل الوندال معارك شديدة كان النصر دائما حليفه فيها .

وحاول الوندال بقيادة (جيسرك) الموقف امامه ، ولكنهم فشلوا وهربوا الى جنوبى اسبانيا واستقروا فيه وأطلقوا على هذا الجزء اسم (فاندالوسيا) كما سبق أن بيناه .

وظل القوط في صراع طويل مع الاسبان الى ان استطاع يوريك القوطي في اوائل النصف الاخير من القرن الخامس الميلادي ان يتغلب على جميع القوى ويخضع الاقاليم المهمة في جنوب فرنسا وشمالى اسبانيا وجنوبيها وقبل وفاته « أخضع » لوزيتانيا « البرتغال حاليا » وبذلك أصبحت دولة القوط تمتد من أقصى الهضبة الفرنسية الى طرف اسبانيا الجنوبي : واخذت اسبانيا لأول مرة في التاريخ تظهر كوحدة سياسية واتخذ ملوكها مدينة طليطلة مركزا للحكم والسلطان .

ومرت الأيام على اسبانيا وتقلب على عرشها كثير من ملوك القوط، ولما بدأ سرطان الحقد السياسى يدب في قلوب الطامعين انتابتها موجة من الفتن والثورات ، وكان القرن السادس كله شعلة من الحروب الاهلية والمنازعات الطائفية ولقى بعض ملوكها حتفهم في هذه الثورات الدموية وانتهز القوط الشرقيون وهم من سكان اسبانيا القدامى بزعمة « ثيودريك » الفرصة لتحريرها من قبضتهم وهم الذين كانوا يخالفونهم في العقيدة فلقد كانوا يدينون بالعقيدة الآرية التي لا تؤمن بالوهية المسيح ولا تعترف للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس بعكس القوط الشرقيين (الكاثوليك) الذين كانوا يدينون بالوهية المسيح وتقديس السيدة مريم البتول .

وقد حالف الحظ (ثيودريك) بعض الزمن ولكن سرعان ما قام أحد قواد القوط الغربيين بثورة جريئة استرد بها عرش اسبانيا ثانيا بفضل معونة امبراطور (بيزنطة له في عام ٥٥٤ الميلادى) .

وفي عام ٥٨٧م رأى الملك ريكاردو الذى تولى العرش في سنة ٥٧٤م وانتهت أيامه في عام ٦٠١م حسما للنزاع الدينى الذى طال مداه بين بنى قومه وبين أهالى البلاد الكاثوليك وأكثرهم من البشكنس (نافار) الذين يقطنون في النواحي الشمالية رأى ان يعلن امتناقه للمذهب الكاثوليكى لعل في ذلك ما يهدىء الثائرين ويدعم سلطانه ، وفي مجمع طليطلة الدينى امنتق المذهب وتبعه عظماء القوط الغربيون ومن يدين بعقيدتهم من حكام الاقاليم ، ولكن خاب فال الرجل وبنى عشرينه فقد ظلوا جميعا برغم هذا في نظر الشعب مفتصين دخلاء .

وكان يزيد الجفوة بين أولئك وهؤلاء طبقة اليهود الذين عانوا ابلغ صنوف الاضطهاد نتيجة لخياناتهم ومزماراتهم الدنيئة والذين قاموا بمحاولات متعددة يخفون التخلص من حكم القوط ، فأخفقوا ومزقت

جموعهم ونهبت ديارهم وقام (ريكاردو) بمصادرة شعائرهم الدينية ومنعهم من الشهادة ضد المسيحيين .

وسار التاريخ يتوكأ على عصاه يطوى في سيرة الاعوام الى ان اقبل شهر نوفمبر سنة ٧٠٠ ميلادية - فاعتلى العرش الملك غيطشة ، وهو الملك السادس والعشرون من ملوك اسبانيا القوطيين . فرأى البلاد مقسمة الى عدة طبقات كالآتي :

(ا) طبقة الامراء الحاكمين التى استولت على معظم الاراضى الزراعية ، وكان لها مناصب القيادة والزعامة .

(ب) طبقة الكهان وكان كل ما يملكونه معنى من الضرائب علاوة على اشتراكهم فى شئون الدولة وكان قضاؤهم لا مرد له ولم يكن القضاء عندهم وعند ملوكهم الا جباية الاموال وسلب الحقوق والاثراء الفاحش على حساب الشعب الجائع المسكين .

(ج) طبقة الصناع والتجار وصغار الملاك ويقع على عاتقها دفع الضرائب والغرامات .

(د) طبقة رقيق الارض وكان افرادها الذين يكونون اغلبية الشعب . يفلحون ضياع السادة ويدخلون فى عداد ثرواتهم ، وكانوا محرومين من جميع حقوق الانسان كما كانوا ينتقلون من سيد الى سيد كالتركات يتوارثها الابناء عن الاباء .

كانت هذه هزيمة اسبانيا عندما تولى غيطشة العرش وكان فى الرجل نزعة من الخير ، فاراد ان يصلح ما آفسته أسلافه وان يرد الحقوق ويمنح الشعب حقه فى الحياة ويحرره من ظلم الكنيسة والاقطاع فتأصر عليه الجميع فأعلنها عليهم حربا شعواء وظل يقاتلهم وحينما تبين له أن اليهود قد انضموا الى خصومه وكانوا حلفاءه بالأمس حمل عليهم وأصابهم من سيفه ما جعلهم يرجون الخلاص من حكم هذه الأسرة التى أنزلت بهم أشد انواع التنكيل فى مدى قرنين من الزمان .

واليهود فى كل عصر اشتبهوا بالخيانة والغدر ورثوهما كابرا عن كابر فى سبيل تحقيق أطماعهم ولو على حساب شرفهم ، وظالما اذوا الشعوب الحرة بالطعنات الخائنة ، تراهم فى فترات ضعفهم جنباء اخساء يظهرون الولاء والاستسلام . وفى فترات قوتهم جبابرة قساة

يشقون الأخدود ويحرقون النصارى تحريقاً كما فعلوا بنصارى اليمن
فى عام ٥٢٤ الميلادى فى زمن ملكهم اليهودى (ذونواس) وقد ندد القرآن
الكريم بفعلتهم هذه بقوله « قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود
اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما تقوموا منهم
الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

هذا هم اليهود ، ارادوا التنكيل بالملك غيطشة فنكل هو بهم كما
نكل بهم من سبقوه من الملوك والأباطرة .

القسم السادس

الفتح العربي لاسبانيا

الفصل الاول

تباشر النصر

وقف موسى بن نصير يودع طارقا وهو يتقدم موكب الفوز لفتح اسبانيا وتعريبها وحلده التهور في الحرب محافظة على ارواح الجنود وأن يستشير أصحابه ويشركهم في الأمر ولا يجتهد مسرعا بل بالتؤدة ، فانها الحرب لا يصلحها الا الرجل الحازم الكيس الذي يعرف الفرصة ، فيقتنصها ثم وصى قواد الفرق بالألا يجبنوا عند اللقاء ولا يمثلوا عند القدرة وإن ينزهوا جهادهم عن عرض الدنيا ففي ذلك النصر كل النصر

ثم وقف طارق في أواخر ربيع الآخر سنة ٩٢ هجرية الموافقة لسنة ٧١١ ميلادية يباشر عبور المسلمين الى شاطئ اسبانيا الجنوبي وهم على سفن يليان ويستمتع اليهم وهم يرددون في فرحة بالغة خطف شاعرهم شعره الحماسي الذي مطلعته :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا
عسى أن يكون الله منا قد اشترى

نفوسا وأموالا وأهلا بجنة
إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا
إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا

ولم يات اليوم الخامس من شهر رجب الا كانت آخر دفعة من الجنود بقيادة طارق بن زياد وصحبه الكونت يليان تهبط ارض اسبانيا وقد وجد الجميع في انتظارهم أنصار الملك غيطشة ، فكانوا لهم خير العون والسند .

وبدا طارق في العمل بسرعة فامكنه أن يسيطر على أكثر مدن الساحل الجنوبي (من قرطاجنة حتى الجزيرة الخضراء) وبذلك أصبحت تلك المدن التي على مضيق جبل كاليبى (جبل طارق من ذلك الحين) التي يبلغ حوالى خمسة كيلومترات ترفرف عليها الراية العربية الاسلامية .

ثم تركها طارق في حراسة رجال يليان وانطلق هو شمالا بغرب فملك (طريف) وظل زاحفا دون أن يجد أمامه ما يصدّه حتى وصل نهر البرباط الذي يخترق بحيرة لاخندا ، وهناك عسكر في واديه الفسيح بجوار بلدة صغيرة أطلق عليها العرب اسم (بكّة) وسموا الوادى باسمها .

وجاءت العيون تخبر طارقا بأن الامبراطور لنريق قد غادر مدينة قرطبة في طريقه الى شنونة لملاقاته في جيش بلغ عدده (مائة ألف جندي) وأمام هذا الخبر أسرع طارق بإرسال أحد قواده (طريف بن ملوك) الى موسى بن نصير يطلب منه مددا ويخبره بما أحرزه العرب من نصر وانهم ملكوا مداخل الاندلس وأن لنريق في الطريق اليه بما لا قبل له به الا ان يشاء الله .

وكان موسى بن نصير منذ عبور المسلمين بقيادة طارق بن زياد على سفن يليان قد ساءه ألا يكون للعرب أسطول بحري يفتنيهم عن طلب المعونة من يليان وغيره ، لذلك جلب العمال والصناع وشرع في انشاء عدة سفن حتى صار عنده منها عدة كبيرة ، فلما جاءه طريف برسالة طارق قام على الفور وبعث معه خمسة آلاف جندي أركبهم السفن العربية مرة واحدة .

ولم يمض طويل وقت حتى كان الجنود يأخذون مكانهم مع اخوانهم البسلاء في سهل البرباط ، وهم جميعا أقوياء على المغانم حراص على اللقاء ومعهم يليان المستأمن اليهم في رجاله وأهل عمله يدلهم على الشغرات ويتحسس لهم الاخبار ، وقد قرروا أن ينطلقوا الى ماهاجروا اليه في عزيمة وبأس : فاما نصر تثبت به دعوة التوحيد في أرجاء اسبانيا ، واما استشهاد في سبيل مجد الله ووحدانته ينالون به عند ربهم المقام الأسمى ومنزلة الصديقين الأبرار .

الفصل الثاني

المؤامرة

كان الامبراطور لذريق منذ أن علم بنزول العرب الى الأندلس قد أوقف جميع عملياته الحربية ضد الشوار في اقليم بنبونة . وغادر الشمال مسرعا الى مدينة « قرطبة » لتكوين جيش كبير يواجه به طارقا وصحبه . وأرسل الرسل لأولاد غيطشة يعرض عليهم الصلح ويؤمنهم على أنفسهم ويستنفروهم للقتال معه وأن يكون الجميع يدا واحدة ضد المسلمين .

وقبل أولاد غيطشة العرض لتنفيذ مؤامرتهم ضده ، وساروا اليه في رجالهم وأنصار أبيهم ، وبالقرب من قرية شقندة انضموا الى جيش لذريق وهم جميعا يضمرون كرهه وقال كبيرهم :

« ان هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله وانما كان من أتباعنا ، فلسنا نعدم من سيرته خبالا في أمرنا ، وهؤلاء القوم (العرب) الطارقون (لبلادنا) لا حاجة لهم في استيطان بلدنا وانما مرادهم أن يملئوا أيديهم من الفنائم ، ثم يخرجوا عنا قلوبهم فلنتهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا اذاه فاذا انصرفوا عنا أقعدنا في ملكنا من يستحقه » .

وانطلق لذريق بجيشه وهو لا يدري ما بيته له أولاد الملك غيطشة من غير الى أن وصل سهل البرباط الفسيح في الجهة التي بقرب مدينة شذونة ، فرأى على بعد حوالي فرسخين معسكر المسلمين ، فوقف في مكانه ينظم صفوفه ويعد جنوده للقتال .

الفصل الثالث

معركة لكه وفرار الفريق

وقف الغريمان وجها لوجه كل منهما ينتظر أن يكون خصمه البادئ بالهجوم ولما ظهر لطارق أن الساعة الفاصلة قد أوشكت أن تحل اتفق مع قواد الفرق على حرق سفن الغزو لكي يفقد الجنود كل أمل في العودة ثانيا إلى المغرب ويقاتلوا قتال المستميت وفي ذلك ضمان للفوز (١٥) *

وسرعان ما اندلعت النار في السفن وملا دخانها أجواز الفضاء الأمر الذي حير للنريق وبعث في التو من يأتيه نبأ ذلك ، وقد هرعت إليه الرسل يملؤهم الفزع قائلين : « أيها الملك ، لقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك فقد أحرقوا سفنهم إياسا لأنفسهم من التعلق بها ، ووقفوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب » ، فخاف ثم تضاعف جزعه *

وفي الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ هجرية الموافق ١٩ من يوليو سنة ٧١١ ميلادية وقف طارق يحث المسلمين على الصمود والثبات في أثناء القتال وقال فيهم خطبته الخالدة التي بدأها بقوله :

أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصلح والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيق من الأيتام في مأدبة اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتموضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن أن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها النفوس إلا وأنا أبدا بنفسى ، واعلموا أنكم أن صرتم على الأشق قلما استمتعتم بالألفة إلا طويلا ، فلا ترغوا بأنفسكم عن نفسى فلما حظكم فيه بأوفى من حظى !

ثم ختمها بقوله :

(١) يشك البعض في ذلك لأن السفن لم تكن ملك المسلمين ولكن ليس من المستبعد أن تكون هذه السفن من التي بناها موسى بن نصير كما سبق القول *

أيها الناس :

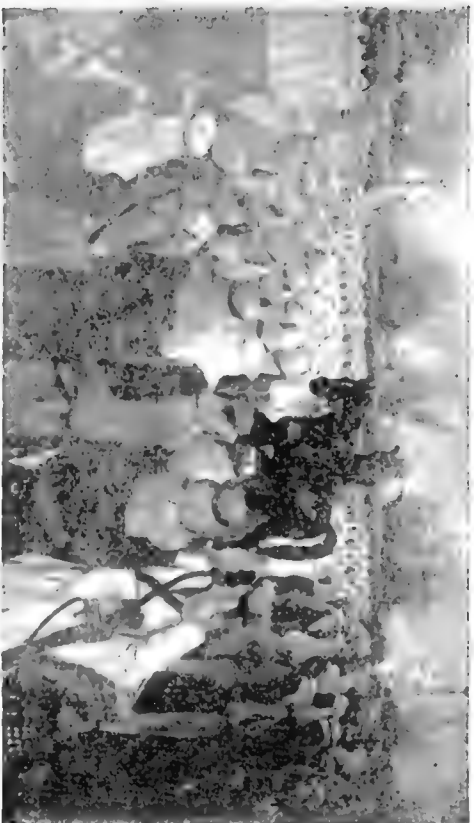
ما فعلت من شيء فافعلوا مثله إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ،
ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال إلى أن قال :
وهأنذا حامل حتى أغشاه (١) فاحملوا بحملي ، واكتفوا لهم من فتح
هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون .

وبعد لحظة صمت رهيبية أصدر طارق للجنود إشارة الهجوم ،
فانطلقوا إلى صفوف أعدائهم كالريح العاصفة مكبرين مهللين ودوى صدى
تكبيرهم في أنحاء الوادي كردد السماء فملا الخوف قلوب القوط الذين
لم يتعودوا من قبل سماع مثل هذا النداء . وكان القتال بالقرب من بلدة
شريس ، وظل سجلا بين الطرفين حوالي سبعة أيام وفجأة بدأ أولاد
غيطشة عندما سنحت لهم الفرصة ينفذون ما عاهدوا أنفسهم عليه فانسحبوا
من مواقعهم وانضموا إلى صفوف المسلمين الأمر الذي أوقع الفشل في
جيش القوط وجعل من نجا منهم يدير ظهره للمسلمين فرارا ورعبا تاركاً
خلفه ملء السهل والجبل آلافاً من جثث أخوانه وعتادا لا يعد ولا يحصى .

أما للزريق فقد فر ناجيا بنفسه واتجه ناحية النهر ثم عبره سباحة
إلى الضفة الأخرى تاركاً فرسه الأشهب المسرج بالذهب والياقوت وخفه
المفضض على الشاطئ ، ليوم المنتصرين بأنه غرق فيكفوا عن مطاردته ،
ولكننا سنلتقي به بعد ذلك على رأس جيش كثيف عندما يقف وجها لوجه
أمام بطنا (موسى بن نصير) في معركة السواقي وستشاهد فيها نهايته
المحتومة (٢) .

(١) أي للزريق .

(٢) اقرأ تفاصيل جميع معارك فتح الأندلس في كتابنا (الطولة العربية في الأندلس
وفرنسا) كتب قومية .



طارق بن زياد يعظب في الجيود خطيبه المشهوره قبل موافقه سرسني (وادي بكة)

مزرعة شيرينى (وادى بنگه) وادي الحريق



الفصل الرابع

الى طالبه

ولما فرغ طارق من توزيع الغنائم على المحاربين عقب انتهاء المعركة انطلق نحو مدينة (استجة) فدخلها غازيا ، ثم أشار عليه الكونت يليان بأن يقسم جيشه أربعة أقسام • كل قسم يسير الى جهة لاختصاصها ، فقبل طارق مشورة الحليف ، وسار القسم الاول بقيادة مغيث الرومي لاحتلال مدينة قرطبة ، وزحف القسمان الثانى والثالث بقيادة زيد بن قاصد الى مدن الجنوب ، أما القسم الرابع فقد قاده طارق بنفسه واندفع به لغزو مدينتي طليطلة (العاصمة) والمائدة (قلعة هنارس) •

ولما كلل الله جبين هذه الجيوش الاربعة بأكاليل الظفر ، واستطاع مغيث الرومي فتح مدينة قرطبة وأسر حاكمها القسوطى الذى احتفظ به لنفسه ليفتخر به عند الخليفة (الوليد بن عبد الملك) • واستطاع جيشا الجنوب الاستيلاء على مالقة وغرناطة وما حواليهما من قرى ، وغنم طارق أموال العاصمة وتيجان الأباطرة الذهبية المرصعة بالجواهر والمائدة الرائعة المصنوعة من الزبرجد الأخضر التى لها ثلاثماية وخمس وسبعون رجلا والتى كان القساوسة يحملون عليها الأناجيل فى وقت العبادة ويضعونها على المذابح فى أيام الاعياد مباهلة بعظمتها •

كان الشتاء قد أقبل ففضل طارق بن زياد أن يقيم فى طليطلة ويوقف عمليات الغزو الى ما بعد انتهاء فصل الشتاء ، وقام فى خلال ذلك بإعادة أملاك أولاد الملك غيطشة اليهم اعترافا لهم بما قدموه للمسلمين من مساعدة •

ولما عرف هؤلاء (أولاد غيطشة) أن العرب لم يأتوا اسبانيا وهم يقصدون اصابة الغنائم ثم يرحلون بعدها الى المغرب تمنوا من طارق ثم من موسى بن نصير المزيد من الضياع • ولكن البطليين رفضا واكتفيا بإعادة «ثلاثة آلاف الضيعة» التى كان للريق قد صادرها منهم من قبل • فامتثلوا للأمر وانزروا يندبون حلمهم الذى تبدد • وهو استرجاع عرش أبيهم المفقود •

الفصل الخامس

موسى بن نصير في الانتدلس

هرعت الرسل الى موسى بن نصير بالقيروان تحمل له تفاصيل الموقف الحربي بالاندلس ومدى ما وصل اليه المسلمون من فتح لها ، فرأى أن طارقا قد اتجه في زحفه شمالا بشرق وترك أغلب مدن الغرب دون غزوها ، وهي في نظره أخطر الجهات على جيوش الفتح نظرا لكثرة ما تجمع فيها من القوط الهاربين ، فعزم فورا على العبور بجيشه لاختضاع هذه المدن خشية أن يقطع القوط خط الرجعة على المسلمين .

وبينما هو آخذ في الاستعداد لذلك اذ جاءته رسالة من طارق يحثه فيها على العبور اليه لنجدته قائلا له : « ان الامم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالقوت القوت » .

وقد بعث طارق لموسى بهذه الاستغاثة بناء على الاخبار التي وصلت اليه من الكونت يليان من أن القوط بدءوا يكتلون أنفسهم للانقضاء عليه في طليطلة ، لذلك ما ان وردت هذه الاستغاثة الى موسى بن نصير حتى أسرع بتجهيز الجنود للابحار بهم الى الاندلس .

وفي أوائل شهر رجب من عام ٩٣ للهجرة غادر موسى مدينة القيروان على رأس جيش بلغ عدده ثمانية عشر ألفا ونزل في موضع بالاندلس سمي منذ ذلك الوقت بمرسى موسى ، وكان في استقباله الكونت يليان الذي حثه على الزحف بسرعة نظرا لاشتداد المقاومة القوطية التي بدأت ترفع رأسها ، وتقض مضاجع الحاميات الاسلامية في مختلف المدن التي فتحوها .

وما انتهى باقى الجنود من عبور البوغاز ووافوا زملاءهم في مكانهم بالجزيرة الخضراء حتى انطلق موسى بن نصير بالجميع نحو مدن شنونة وقرمونة وراعوق فاستولى عليها دون جهد .

ثم تركها في حراسة أنصار يليان وبعض الفرق العربية ونفر من اليهود الذين تطوعوا لخدمة المسلمين منذ ابتداء الفتح لحاجة في نفس يعقوب .

وزحف مسرعا نحو مدينة اشبيلية وهي حصن القوط الحصين ومن اعظم مدن الاندلس وموقعها يساعد حمايتها على الوقوف امام هجمات الزاحفين ، اذ أن نهر الوادى الكبير وهي على ضفته اليمنى يساعد في مناعتها وتحصينها ، فاستعصت على موسى عدة أشهر فحاصرها حصارا

محكما : ولما أُرِى سكانها الجوع من شدة انحصار قام هؤلاء السكان فى الليل وغافلوا حراسها القوط وفتحوا الابواب للغزاة ، فدخلها موسى دخول الظافرين وهرب القوط نحو مدينة باجة : واعتصموا بداخلها ، ومنها راحوا يرقبون سير التيار .

ثم اتجه موسى بن نصير بعد ذلك الى مدينة ماردة وكانت هذه المدينة من أمتع مدن أسبانيا وبها من الآثار والقصور والكنائس ما يفوق الوصف وقد فتحها موسى صلحا بعد حصار طويل ، وما كاد ينتهى منها حتى بعث ابنه (عبد العزيز) الى اشبيلية لاختضاع الثائرين الذين انقضوا على الحامية الاسلامية واستولوا على المدينة . وقد نجح عبد العزيز فى كسر شوكة المتمردين وأعاد النفوذ العربى الى المدينة « ثانيا » ، ثم مضى نحو المدن الغربية التى لم يتيسر للمسلمين فتحها مثل باجة وبابرة وشنترين فنجح فى الاستيلاء عليها جميعا .

موسى بن نصير يلقم القوط على أبواب مدينة ملوكة



الفصل السادس

موسى بن نصير ومقتل للرق

بينما كان موسى بن نصير يحتفل بانتصارات ابنه (عبد العزيز) وبعد جنوده للجولة الثانية ، كان الامبراطور لذريق قد استطاع بعد هروبه عقب هزيمته فى معركة رلكة أن يجمع فلول جيشه المنهزم ويجند أنصاره مرة أخرى ثم وقف بهم فى المنطقة التى بين وادى نهري (آنة ، والتاجة) لمعاودة الكرة ضد العرب .

ولما وصلت هذه الاخبار الى موسى بن نصير قرر فوراً الزحف نحو بلدة (طليبرة) واستدعاء طارق بن زياد من مدينة طليظلة للزحف معا ومباغثة لذريق فى مكانه .

وترك موسى مدينة ماردة مسرعاً مخترقاً الطريق الرومانى القديم الذى يصل ماردة بمدينة سلمنقة بحذاء نهر صغير سمي من ذلك الحين (نهر موسى) .

والتقى موسى بطارق فى مكان يسمى (المعرض) بين نهري التاجة والتيتار وترجل طارق عن فرسه احتراماً لقائده الأعلى ، وتلقاه موسى بالترحاب ، ومدح شجاعته وحسن بلائه قائلاً :

« يا طارق ، لن يجازيك الوليد بن عبد الملك (الخليفة) على بلائك بكثير من أن يبيعك الاندلس ، فاستبحه هنيئاً مريئاً »

ورد عليه طارق بقوله :

« أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته الى البحر المحيط » .

وبعد أن تفقد موسى صفوف المسلمين وشكرهم على جهادهم وأشاد بانتصاراتهم المظفرة عسكر بهم (فى ناحية السواقي) استعداداً للمعركة الفاصلة بينه وبين لذريق .

وفى هذه الأثناء كان لذريق يزحف برجاله نحو معسكر المسلمين ، وقد خيل اليه أنه بضربة خاطفة سيقضى عليهم نظراً لوقوفهم فى هذه المنطقة التى تبعد عشرات كيلومترات عن أى مركز لهم يستطيعون طلب الانتجدة منه .

والتحم الجيشان وظل القتال طيلة النهار وفجأة لمح مروان بن موسى

موسی بن نصیر يستقبل طارق بن زياد في مدينة طليخة لوجه الجيود لسان الامير امار الفري



ابن نصير ، الامبراطور لدريني وهو يقسانل كالشيطان على جواده فاندفع ناحيته مكبرا ، واقتحم الصفوف غير مبال بما يتعرض له حتى أصبح منه قباب قوسين أو أدنى وفي عزمة المؤمن الواثق بنفسه ونصره رفع سيفه وهوى به على عاتقه ثم كرر ضربته فسقط بعدها مجتدلا تحت الاقدام ، والفارس الشجاع يكبر تكبيرة النصر ، فسمعه كل من فى الميدان ، فأجاب كل عربى (الله أكبر) عدونا قد مات .

وبموت لذريق اضطربت صفوفه ، وهرب من بقى من أنصاره ناجين بأنفسهم من سيف غالب خرج فى سبيل الله غازيا ولدين الوجدانية ناشرا فكان من المنتصرين ، ثم راح هؤلاء الهاربون فى مخابثهم يذرفون الدمع السخين على مليكهم المقتول ، وباتوا يرثونه بالملاحم الشعرية الحزينة وكان أدوعها تلك الملحمة التى ظلوا ينشدونها على لسان مليكهم السنين الطوال ومطلعا :

كنت الليلة الماضية ملكا لاسبانيا وأمسيت الليلة ولا ملك لى !
كنت الليلة الماضية أملك القصور ، وانى الليلة مشرد لا أعرف أين اصطبح !

وكان يخدمنى ليلة أمس مائة من الولدان وهم رقع سجود ، وأما الآن فاننى أنادى فأسمع رجع الصدى وما من أحد يلبى النداء !
فيا لضيقة الأمل وبالسوئها من ساعة ! ويا لعنة هذا اليوم ! اليوم الذى ولدت فيه لأكون ملكا لهذا البلد العظيم !

يا لبؤسى وشقاى ! فعما قريب سأشهد الشمس تغرب ويهبط ليل ثقيل !

ياها الموت من علمك الثانى والتمهل ؟ ما الذى تخشاه ؟ هيا اضرب ضربتك القاضية !

وحقا كانت الضربة قاضية فبمقتله دانت اسبانيا للحرب زهاء ثمانية قرون طوال .

والعجيب أن القوم قد خلعوا على مليكهم بعد مصرعه أثواب البطولة وهم الذين كانوا يتمنون زوال ملكه ، وراحوا يتخسئون منه المثل الاعلى لأمانيتهم وآمالهم ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فقد اعتقدوا أنه ذهب حيا الى مكان مجهول وانه يقضى أيامه فى ندم وحسرة على ما جنت يده من الآثام فى حق شعبه . وقد أقبلت عليه الثعابين من جميع الاقطار ثم أخذت

نبتلعه دون أن يقاومها فلما غسل ذنوبه وكفر عن آثامه فى جوفها خرج منها طاهرا مطهرا وانه اليوم يعيش فى جزيرة السلام حتى يحين الوقت ويعود اليهم ثانيا ليقودهم الى النصر الذى فقده ، ولله فى خلقه شؤون!

وجمع المسلمون أحمالهم وغنائمهم وغادروا أرض المعركة واتجه بهم موسى بن نصير نحو مدينة طليطلة حيث بلغه أن نفرا من القوط قد وثبوا عليها وانتزعوها من أيدي الحراس العرب اثر مغادرة طارق بن زياد لها لمقابلته .

واستطاع موسى أن يبطش بالقوط بطشة الجبارين ودخل طليطلة بين التكبر والتهليل ، ثم بدأ يجمع الغنائم ويطالب القواد بأسلابهم وهى التى يعتبرونها حقا لهم الامر الذى كان له أسوأ الاثر فى نفوسهم ولاسيما فى نفس مغيث الرومى وزميله طارق بن زياد وذلك لمطالبة موسى لمغيث بتسليمه حاكم قرطبة الذى يحتفظ به مغيث ليتباهى به عند الخليفة وأخذه من طارق مائدة طليطلة الرائعة التى سبق ذكرها .

ولما فرغ موسى من ذلك بعث (التابعى على بن رباح) و (مغيث الرومى) الى الشام ليبلغا الخليفة (الوليد بن عبد الملك) مآثره المسلمون من نصر ، وقد رأى مغيث فى هذه البعثة أعظم فرصة ليؤلب الخليفة على موسى ، ويدس له عنده نكاية فيه مما أثر على خاتمة موسى عند سفره الى دمشق امثالاً لأمر الخليفة كما سيراه القارىء مفصلاً بعد .

موسى بن نصير في معركة السواقي ومقتل للبرقي



الفصل السابع

غزو الشمال وسك النقود

٩٥ هجرية = ٧١٣ ميلادية

ظل موسى بن نصير بقية الشتاء مقبلاً في طليطلة وفي أثناء إقامته قام بسك دنانير ذهبية وعملة برونزية ليُدفع منها مرتبات الجنود ويتعامل بها المسلمون في تلك البلاد ، إذ أنهم كانوا في ذلك الوقت يتعاملون بالعملة الإفريقية التي سبق أن سكها موسى في المغرب سنة ٩٠ هجرية ، وكان الدينار الذهبي الجديد مشابهاً للدينار الإفريقي ، وقد كتب على أحد وجهيه (محمد رسول الله) يحيط بها نص باللاتينية على هيئة دائرة ، ونقش على الوجه الآخر نجمة ذات ثمانى أذرع حولها كتابة باللاتينية ، ويلى ذلك تاريخ السك وهو سنة ٩٧ هجرية .

والعملة البرونزية كان تعريفها مكتوباً عليها باللغة اللاتينية أيضاً .

ولما انقضى الشتاء ولاحت تباشير الصيف عزم موسى ، على الخروج للغزو ، واتفق مع طارق على الزحف معاً ، وانطلقا إلى وادي الحجارة فاستوليا عليه ، ومنه انحدرنا شرقاً فأنضمنا مدينة (سرقسطة) التي على الضفة اليمنى من نهر إبرة . ثم غادرنا إلى مدينتي (الأردة ، وطركونة) وأخيراً دخلنا مدينة (برشلونة) فاتحين وخطر لموسى بعد ذلك أن يعبر جبال الأبرنات وينطلق لغزو الأرض الكبيرة (فرنسا أو الغال) ، كما كانت تعرف من قبل مستأنفاً زحفه شرقاً إلى القسطنطينية ومنها ينطلق إلى الشام ليلحق بدار الخلافة بدمشق ، ولكن قواد الجيش نصحوه بعدم المخاطرة في تلك الأرض المجهولة ، فأذعن لرايهم، وعاد إلى سرقسطة ليستعد للجولة الثانية .

وفي أثناء ذلك حضر مفيت الرومي قادماً من دمشق يحمل معه أمراً من الخليفة لموسى بن نصير يأمره فيه بوقف جميع عمليات الغزو فوراً ومفادرة الاندلس بصحبة طارق بن زياد وموافاته في دمشق لمقابلته . وأدرك موسى الذي كان له نظرة في الرجال لا تخيب أن وراء هذه الدعوى ما وراءها نظراً لما بدر منه في حق مفيت من قبل ، فطلب من مفيت أن يمهله بعض الوقت لغزو الشمال على أن يعطيه نصف ما يفتح من الأموال والسبايا وأن يملكه قصر حاكم قرطبة فقبل مفيت العرض وسار معه لغزو الشمال .

واتفق موسى مع طارق بأن يزحف كل منهما على حدة فزحف طارق

شمالا جهة شاطئ نهر ابرو فأخضع ولاية أرغون ، ثم استولى على بعض المدن ومنها مدينة ليون .

أما موسى بن نصير فقاد جيشه ومعه مغيث الرومي واندفع شمالا بقرب وسار متبعاً نهر النالون حتى أدرك (كوفادونجا) ثم تركها الى (خيخون) على شاطئ المحيط الاطلسي فملكها ، وأخيراً بلغ احصن لك فدمره عن آخره وأراد أن يأسر حاكمه (بلايو) ولكنه أفلت من الاسر واعتصم بصخرة (بلاي) التي على المحيط ، فبعث موسى في اثره فرقة من الفرسان للقبض عليه .

وبعد هذا النصر المؤزر ألح مغيث على موسى بالعودة الى دمشق تنفيذا لأمر الخليفة فاستجاب له موسى وبدأ يستعد للرحيل .



القسم السابع

خاتمة موسى بن نصير ووفاته



الفصل الأول

رحيل بلا عودة

غادر موسى بن نصير حصن لك وانطلق الى ليون لمقابلة طارق الذي قدم من اشتورقة، ومن هناك سارا معا ومعهما مغيث الرومي، وفي الطريق عرج موسى الى مدينة طليطلة لجمع الفنائم والاسرى من امراء القوط وأشرفهم لاصطحابهم معه الى دمشق *

ولما انتهى من ذلك استأنف الرحيل الى أن وصل مدينة قرطبة ف رأى (موسى) قصر حاكم المدينة الذي كان قد وهبه لمغيث فأخذ بما شاهده من فخامته وروعته حتى انه قرر أن ينقض قراره ويمنح مغيثا بديلا عنه قسرا آخر أقل روعة منه ، الامر الذي زاد كراهية مغيث له *

ومن قرطبة واصل موسى مسيره فوصل مدينة اشبيلية وقيل ابصاره منها استخلف على الاندلس ابنه (عبد العزيز بن موسى) ووصاه بمتابعة الفتح والغزو لما بقي من الاقاليم الاسبانية وخاصة التي في الجنوب الشرقي ، ثم اختار له مدينة اشبيلية عاصمة للبلاد لاتصالها بالبحر وقربها من المجاز *

وعبر موسى الى المغرب في شهر ذي القعدة سنة ٩٥ هجرية (سبتمبر سنة ٧١٤م) ولما وصل مدينة القيروان عين ابنه (مروان) حاكما عليها وعلى ما جاورها من الاقاليم ، ثم نصب ابنه (عبد الملك) على حكومة طنجة وما يليها من بلدان المغرب الاقصى *

وغادر موسى القيروان في طريقه الى دمشق مصطحبا معه أسراه وغنائمه التي لم يفتح مثلها فاتح من قبله سوى سعد بن أبي وقاص عند فتح المدائن بالعراق *

وظل موسى يسرع في سيره الى أن وصل مصر في السابع من شهر ديسمبر من العام نفسه ، وفي أثناء الطريق طلب موسى من مغيث أن يسلمه حاكم قرطبة الاسير الذي سبق ذكره فأبى مغيث أن يسلمه إياه وقال له « لا يؤديه للخليفة سوى »

فما كان من موسى الا أن هجم عليه وانتزع الاسير منه ، وهنا أشار على موسى بعض خاصته بأن يقتل الحاكم قاتلين له : (ان سرت به حيا طالبك به مغيث عند الخليفة و (الحاكم) لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه) *

واستمع موسى للمشورة وقتل الحاكم ، الأمر الذى جعل الجفوة
نزداد بين موسى ومغيث ودفعت الأخير بأن يضم الى صفه طارق بن زياد ،
واتفقا عند وصولهما الى دمشق أن يسبقاه لمقابلة الخليفة ويشكواه عنده
ويخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة وقتله لحاكم قرطبة وما قد استولى
عليه من أموال وجواهر (لم تصب الملوك مثلهما من بعد فتح فارس) .

وغادر موسى مصر منطلقا الى دمشق فلما وصل فلسطين قيل انه
كان بها فى ذلك الوقت ولى عهد الخلافة (سليمان بن عبد الملك فلما رأى
سليمان ما جمع موسى من غنائم ليس لها نظير طلب من موسى أن يتمهل
فى سيره الى دمشق لأن الخليفة (الوليد) فى النزاع الاخير . وكان
سليمان يبغى من ذلك أن يصل موسى بغنائمه الى دمشق بعد موت
الوليد فتقول الغنائم كلها اليه .

ولكن موسى بن نصير أدرك ما يهدف اليه سليمان فلم يستمع له
ولم ينفذ رغبته مما أثار حفيظة سليمان ضده وعزم على الانتقام منه
عندما يعتلى الخلافة بعد وفاة أخيه .

وحدث موسى الركب حتى وصل دمشق وطلب مقابلة الخليفة
لتسليمه الأخماس والغنائم ، وبالرغم مما سمعه الوليد من وشايات فى
حق موسى فإنه تحامل على نفسه وهو مريض وجلس على (منبر المسجد)
لاستقباله فبهت مما رأى من عظم الغنائم والجواهر التى لم ير مثلها قط
واستعرض الأسرى الذين البسهم موسى أفخر ثيابهم المطرزة بالذهب
والفضة ، فلقد كان موسى بطبعه ميالا الى المباهاة بما يقع فى يده من الأسرى
العظام والاعلان بكل الوسائل عن انتصاراته المظفرة .

ولما انتهت عمليات التسليم دعا (الوليد) الى اقامة صلاة شكر ثم
أوما الى موسى بالتقرب اليه ورفع يده باناء (العطور) فصب عليه ثلاث
مرات واجازته وفرض لولده ومواليه وأحسن جوائز القواد الذين اشتركوا
مع موسى فى الفتح ، ولم يمض اربعون يوما على هذا حتى مات الوليد
ابن عبد الملك واعلن فى الناس عن تولية (سليمان بن عبد الملك) خليفة
مكانه .

الفصل الثاني

جزء سمار (١)

(١) كان سمار مهندسا فارسيا وقد أراد الامبراطور يزدجرد ان يبنى قسرا بالحيرة بالعراق ليتخذاه هو وولده (بهرام) كمسكنة فبحث لمامله (النعمان) بان يبنى الخورنق فكلف هذا (سمار) ببنائه . فلما فرغ منه واعجبوا به قال لهم : او علمت انكم توفونني اجري لبنيته بناء يدور مع الشمس . فقالوا : وانك لتبنى افضل منه ولم تبنه ! ثم

كان أول ما أقدم عليه سليمان بن عبد الملك بعد تنصيبه خليفة أن استدعى إليه موسى بن نصير وبدأ يحاسبه والف يملأ صدره من ناحيته وأراد قبل أن ينفذ فيه قضاءه أن يستعلم منه عن بعض ما خفى عليه من أخلاقه وصفاته وأحوال البلاد التي غزاها ويسأله عما فعله مع طارق ومغيث واستيلائه على ما ليس له من الغنائم قائلا له :

سليمان : ما الذي كنت تفزع إليه عند حروبك ومباشرة عدوك ؟

موسى : الدعاء والصبر عند اللقاء .

سليمان : فأى الخيل رأيتهما فى تلك البلاد أسبق ؟

موسى : الشقر .

سليمان : أى الأهم كانت أشد قتالا ؟

موسى : هم أكثر من أن أصفهم .

سليمان : أخبرنى عن الروم .

موسى : آساد فى حصونهم عقبان على خيولهم ونساء فى مراكزهم ، ان رأوا فرصة انتهزوها ، وان رأوا غلبة فإوعل تذهب فى الجبال لا يرون الهزيمة عارا !

سليمان : فأخبرنى عن البربر .

موسى : هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية ...

سليمان : فأخبرنى عن الاندلس .

موسى : ملوك مترفون وفرسان لا يخيبون .

سليمان : فأخبرنى عن الافرنج .

موسى : هناك العدد والعدة والجلد والشدة والبأس والنجدة .

سليمان : فأخبرنى عن الحرب بينك وبينهم . لك كانت أم عليك ؟

موسى : أما هذا فوالله ما هزمت لى راية قط ولا بدد جمعى ولا نكب

المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين الى أن بلغت الثمانين .

ثم صرفه سليمان بعد هذا وأرسل في طلب عمر بن عبد العزيز (ابن عم سليمان) وقال له :

(يا بن العم ، اني صاحب موسى غدا) يعني أنه سيحاكمه غدا ، فسكت عمر ولم يجب وخرج من عنده فبعث في طلب موسى فلما وافاه قال له عمر :

(يا بن نصير اني أحبك لأربع) :

الواحدة : بعد أترك في سبيل الله وجهادك لعدو الله .

والثانية : حبك لآل محمد صلى الله عليه وسلم .

والثالثة : حبك عياض بن عتبة لما تعلم من حسن رأبي فيه .

والرابعة : ان لأبي عندك (عبد العزيز بن مروان) يدا وصنيعة ، وأنا أحب أن تتم يده وصنيعته حيث كانتا .

وقبل أن يجيبه موسى استطرد عمر قائلا : وقد سمعت أمير المؤمنين يذكر أنه صاحبك غدا فأنظر فيما انت فيه ناظر من أمرك !

فاجابه موسى : قد فعلت وأسندت ذلك اليك .

فقال عمر : لو قبلت ذلك من أحد .. قبلت منك ، ولكن أسند الى من احببت .

ثم قام عمر وودعه وانصرف .

وأصبح موسى بن نصير فاغتال وذهب الى دار الخلافة ، وكان الوقت صيفا فأذن له سليمان بالمشول بين يديه وكان يجلس معه عمر بن عبد العزيز فسأله عن مائدة طليطة ومن الذي أصابها واستولى عليها قائلا له .

(اني لأعلم أن طارقا هو الذي أصابها دونك) .

فرد عليه موسى بقوله : ان طارقا لم يرها قط الا عندي .

فالتفت طارق الى الخليفة وكان حاضرا وقال له :

(فليسأله أمير المؤمنين عن الرجل المفقودة منها) .

وكان طارق قبل أن يقدم المائدة الى موسى فى طليطلة قد نزع منها
احدى أرجلها الذهبية واخفاها عنه ، فلما سأل موسى عنها قال له طارق
(انى أصبتها هكذا) ، فأمر موسى بصنع رجل أخرى غيرها فجاءت مختلفة
عن باقى أرجلها •

فقال سليمان لموسى : وأين الرجل المفقودة ؟ •

فقال موسى : هكذا أصبتها وعوضتها بهذه الرجل •

وحينئذ مد طارق يده فى قبائه وأخرج الرجل الأصلية منه وقدمها
الى الخليفة ، فظهر للمجتمعين بطلان ادعاء موسى فى ملكيتها مما جعل
« سليمان » يأمر بعزله عن جميع أعماله ومصادرة ما أصابه من غنائم
ثم التفت الى موسى وقال له :

(قاتلى الله ان لم أقتلك) واستطرد قائلاً : (والله لأفلن غربك
ولأفرقن جمعك ولأصغرّن من قدرك) •

فرد عليه موسى فى أنفة قائلاً :

(أما قولك تقل من غربى وتخفض من قدرى فان ذلك بيد الله والى
الله المرجع لا اليك وبه أستعين عليك !) •

وامام هذا التحدى لم يكتف سليمان بمصادرة ما استحوذ عليه
موسى من غنائم بل فرض عليه غرامة باهظة مقدارها (أربعون مليوناً
وثلاثون ألفاً من الدينار الذهبية) •

ولما رأى موسى أنه سيعجز عن تسديد هذه الغرامة الفادحة وجه
كلامه للخليفة قائلاً :

(أما والله يا أمير المؤمنين ما هذا بلأنى ولاقدر جزائى انى البعيد
الأثر فى سبيل الله العظيم ، أما والله لمن فى بطن الأرض أحب الى ممن
على ظهرها مروان وعبد الملك والوليد أخوك وعبد العزيز عمك وما أنت
بعاقل يا أمير المؤمنين ، انى لأرجو ألا يكرم موسى بهوان أمير المؤمنين) •

وبعد أن فرغ موسى من كلامه التفت سليمان الى ابن عمه (عمر
بن عبد العزيز) وقال :

(ما أرى يمينى الا يدا برئت يا عمر) •

قال عمر في روايته : فافتنمتها منه ولم أبال أن يحنث بأحياء وجل من المسلمين فأجبتة :

(أجل يا أمير المؤمنين ، امرؤ كبرت سنه وكثر لحمه) كان موسى بدينا (وبه سقم فما أراه الاميتا) *

وبعد انتهاء عمر من كلامه التفت الخليفة الى الحاضرين وقال لهم (من يأخذ هذا الشيخ فيستخرج منه هذه الأموال ؟)

وكان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة حاضرا في تلك الجلسة فأجاب قائلا :

« أنا يا أمير المؤمنين » *

فقال سليمان :

« فخذ ولا تمسه وضع العذاب على ابنيه • مروان وعبد الأعلى » (١)

وخرج به يزيد فحمله على دابة ابنه ، ثم اتجه به الى منزله فأكرمه وأحسن اليه فلما انفردا وحدهما قال يزيد لموسى :

« لم أزل أسمع عنك أنك من أعدل الناس وأعرفهم بمكاييد الحروب ومدارة الدنيا ، فقل لى كيف حصلت (وقعت) في يد هذا الرجل (سليمان) بعد ما ملكت الأندلس وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار وتيقنت بعد المرام واستصعابه ، وحصل فى يدك من الذخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما أقيت عنقك فى يد من لا يرحمك ، ثم انك علمت أن « سليمان » ولى عهد وأنه الوالى بعد أخيه وقد أشرف على الهلاك لا محالة ، وبعد ذلك خالفتك ، وألقيت بيدك الى التهلكة وأحققت ما لكك ومملوكك » *

وفى اليوم التالى ذهب ابن المهلب الى سليمان ليشفع لصديق أبيه فقال له سليمان :

(١) يرجع وقوف يزيد مع موسى في محتته الى صنيع فعله موسى بأبيه (المهلب) عندما حوله بشر بن مروان (حاكم العراق في ذلك الوقت) من قتال الارارقة (الخوارج) وأراد قتله فتصدى له موسى ونجاه . ولا استفحل امر الارارقة نصح موسى (بشر) بإعادة المهلب الى قتالهم فهو أدري بمكايدهم وقال له : ليس مثل المهلب في فضله وشره وقدره في قومه ، وقد قبل بشر النصيحة وأعاد المهلب ثانيا الى القيادة مؤبدا مكرما .

(ان رأس موسى قد اشتمل على ما يمكن له من الظهور وانقياد الجمهور والتحكم فى الاموال ، ولكنى قد وهبت لك دمه ، وانا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يرد ما غل من مال الله) .

فذهب يزيد الى موسى وأشار عليه بأجابة أمير المؤمنين الى مقاضاته عن نفسه وابنتيه ، فرد عليه موسى بقوله :

« أما اذا كنت أنت صاحب هذا الشأن فأنا غير مخبرك فيما صنعت لأمر المؤمنين وإيم الله لو أمر سواك بى وكلفه اليسط على لكان أحب الى أن ألقى الله عز وجل وأقرب الى من أن يأخذ منى دينارا واحدا ، أديا يابنى عن نفسيكما وأبيكما » .

وذهب يزيد بن الملهب الى سليمان وأطلعه على ما تم الاتفاق عليه وكان يقضى بالآتى :

— قبول موسى بمقاضاته .

— عدم عزل ابنه (عبد الله) عن افریقیة لمدة سنتين .

— كل ما جباه موسى وابنه عبد العزيز بالاندلس يبقى له (أى لموسى) .

— أن يسلمه مولاة طارق بن زياد .

وقد رضى سليمان بهذا الاتفاق ما عدا الشرط الأخير فلم يقبل أن يسلم « موسى » — طارقا (وإبقاه تحت العقوبة) وبذلك (تمت المقاضاة والتراضى) .

ومرت الأيام على موسى بن نصير وهو راض عما نزل به من قضاء الله الى أن أراد الله أن يرفع عنه نعمة سليمان بن عبد الملك فأدرك هذا ما أقدم عليه من اسائة لموسى ، فندم على ما فعل معه وجعل يقول لكل من يقابله أو يجالسه :

« ما ندمت على شيء ، ندامتى على ما فعلته بموسى » .

ومهما يكن نوع العقاب الذى لحق بموسى بن نصير فان الانسان لا يسعه الا أن يعترف بأن الخليفة قد غمطت وأنكرت فضله وتناست أعماله المجيدة ، تلك الاعمال التى حققت وحدة العرب وجمعت شملهم من الخليج الى المحيط لأول مرة فى التاريخ . وقد كان أكرم لسليمان بن عبد الملك أن يعمل على اكرام صاحبها والاشادة بفتوحه العسكرية التى

حكمت نآل مروان ومدت نفوذهم الى أقصى المقرب ونشرت رايتهم فى أعظم بقعة فى أوروبا فى ذلك الزمن ألا وهى (أسبانيا) التى عاش فيها الاسلام بفضل حوالى ثمانية قرون . ولم يكتف موسى بهذا بل انطلق فى عزيمة وقوة ينشر بأس الروانيين فى بعض جزر البحر الأبيض : فلقد حدثنا عذارى : أن موسى بعث المسلمين بقيادة ابنه (عبد الله) ففروا صقلية وسردينية وميورقة ومنورقة وعادوا محملين بنفيس الغنائم والأسرى .

لقد كان يجب على سليمان بن عبد الملك أن يضع كل هذا أمام عينيه قبل أن يصدر حكمه على البطل وأن يدرك أنه حينما رفض موسى ابن نصر أن يجيبه الى طلبه وهو فى فلسطين ليتهمل فى السر حتى يموت الخليفة المريض لتتول غنائم الأندلس والمغرب له انما كان يؤدى واجب وظيفته على أحسن ما يكون الأداء ، وأن تمهله فى السير وهو يعرف الدافع له انما كان يشركه فى الاثم وخيانة الأمانة التى أوثمن عليها وهو فى الوقت نفسه يحنت بيمينه التى قطعها على نفسه عقب حادثة البصرة (ليهب عميره فى خدمة كل خليفة مروانى بلا طمع وباخلاص لا تشوبه شائبة) .

كما كان يجب عليه أيضا ألا يستمع لوشاية مفيت الرومى ضد موسى وأن يعرف أن ما قام به موسى من المطالبة بحاكم قرطبة انما كان يطلب حقا من حقوقه بصفته القائد الأعلى للجيش ، لانه هو وحده الذى تتول اليه الغنائم ، وهو وحده الذى يقوم بتوزيعها على المحاربين كل على حسب درجته فى الجهاد بعد حجز الخمس منها للخلافة كما هو متبع ، وهو وحده الذى يأمر فيقطع أمره حفظا للكلمة ، لا أن يوزع قواد الفرق الغنائم على أنفسهم دون موافقة للقائد الأعلى ، والاذعان لأوامره ؛ فذلك مخالفة خطيرة فى أيام السلم فما بالك فى أيام الحرب اذ يؤدى فى النهاية الى تفرق الكلمة وانتشار الفوضى فى صفوف المقاتلين ، وحينئذ تكون الهزيمة المرة كما وقع فى حملة (عبد الرحمن الفافقى) بعد ذلك بالقرب من باريس عندما رفض قواد البربر أمر عبد الرحمن بترك الغنائم وراهم لينطلقوا خافيا لفرو بقية فرنسا ، ولكنهم أصروا على اصطحابها معهم فى أثناء الزحف فكانت سببا فى الهزيمة الساحقة فى معركة (بلاط الشهداء) واستشهاد البطل عبد الرحمن الفافقى وانحسار النفوذ العربى عن أراض فرنسا بعد احتلال عربى لها مدى أربعين عاما تقريبا (١) .

(١) اقرأ تفاصيل ذلك فى كتابتنا المبلغولة المعربة لى الاندلس وفرنسا (كتب قومية) .

• تقول كان يجب على سليمان بن عبد الملك أن يدخل كل أعمال موسى العظيمة في حسابه والا يحرمه التكريم والمكافأة التي كان يستحقها أمثاله من القواد العظام الذين وسعوا رقعة الاسلام ونشروا رايته في كثير من بقاع الأرض المعمورة وقتئذ لا أن يطوح به في زوايا النسيان وجحور الاهیال ، ولكن هو دائما الطمع والمقدد للشخصی اللذان طالما قوضا الامم الناهضة وساما الأبرياء سوء العتاب •

وقد آزاد سليمان بن عبد الملك أن يكفر عن اساءته لموسى بن نصير فاستصحبه معه لتأدية فريضة الحج وزیارة قبر النبی علیه الصلاة والسلام وذلك في حوالی سنة سبع وتسعين للهجرة •

وفي أثناء الطريق والموكب يعبر وادی القرى باقليم الحجاز اثتابت موسى اغماءة الموت ، فلم يبق منها وصعدت روحه الطموح الى بارئها وهو في الثمانين من عمره ، فدفن في مكانه بين حزين ومشهدوه كأنهم يعلنون للناس عن دفنه وأن شخصه العظيم أصبح الآن حيا في الخواطر والأذهان ، طواه القبر ومضى جسما ليعيش اسما مع الاحقاب مسطورا على كل قلب وعلى كل لسان •

رحم الله موسى بن نصير لما قدم للإسلام والعروبة من جليل الخدمات وحسن الجهاد •

المؤلف شريح اكبر بورار المصنف اطيربي مبرو صلاب مصالة شريح بورس بن حيدر بلاديلى •



القسم الثامن

الجزء من جنس العمل

الفصل الاول

خاتمة طاق بن زياد

تركنا طارق بن زياد في قصر الخلافة وقد ذهبنا بعد أن فرغنا من قصة قائده (موسى بن نصير) تقتفى أثره وتكشف عن مكانه فلم نهتد إليه إذ ضن علينا التاريخ بذلك وأغلب الظن أن الخليفة قد حجزه عنده ليعيش في كنفه كاحد مواليه إذ أنه لم يقبل أن يسلمه لموسى كما مر بنا لكي يكون تحت رقابته فلقد أوجس منه خيفة ان صرفه ثانيا يسافر الى الأندلس أن يستأثر بحكمها ويستقل بها لما له من كثرة الجنود والانسار كما أخبره بذلك مقيث الرومي .

وهكذا انتهى بطارق بن زياد المطاف الى أسوأ ما انتهى إليه موسى بن نصير ، فلقد عرفنا لهذا خبر موته والارض التي وارتها ، أما طارق فقد عجزت الأسفار عن الاهتمام الى مكانه وعما وصل إليه من خاتمة سواء كانت خاتمة حسنة أو سيئة .

نحن - وإن كان من أعز أمانينا وأمانى طلاب البحث والإطلاع أن يقفوا على معرفة خاتمة حياة طارق السياسية التي بدأت بهذا الفتح المبين في سبيل إعلاء شأن العروبة ونشر وحدانية الله في أرجاء الامبراطورية الاسبانية - يكفي الجميع عزاء أن اسم طارق ما زالت الشعوب من مختلف الاقطار والامصار مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم تردده صياحا ومساء حتى يومنا هذا سواء كانت الشعوب الجائرة من البوغاز الذي يحبل اسمه أو من سسكنى مدينته التي أنشئت على سفح جبل الفتح وتعرف اليوم باسم « جبل طارق » .

الفصل الثاني

خاتمة مغيث الرومي

أما ثالث الثلاثة (مغيث الرومي) فقد تركناه كذلك في دمشق بعيش في حى الخليفة (سليمان بن عبد الملك) يسامره ويقص عليه من أنباء الأندلس ما يأخذ بالباه ويثير حواسه وهو يبغى بذلك أن يجزل له إعطاء ويمنحه المكافأة التي يحلم بها ويعمل جاهدا من أجلها وهي حكم الأندلس وليس أحسن منها مكافأة عنده ولكي يحقق هدفه بالسرعة التي يبتغيها بدأ يسلك مع صديقه طارق بن زياد الطريقة التي اتبعها مع موسى عند الخليفة ، فأخذ يخوفه آياه وطمعه في الأفراد بحكم الأندلس إذا صرح له بالعودة ثانيا إليها ، وقد نجحت مساعيه فلم يبرح طارق ابن زياد دمشق : بل اختفى اختفاء تاما عن مسرح الأحداث منذ ذلك الوقت كما أسلفنا .

وإذا كان مغيث الرومي بدهائه الكبير الذي أزعج من طريقه بطليح من أعظم قواد الإسلام (موسى بن نصير وطارق بن زياد) فإنه عجز عن أن يحقق أهدافه فلقد خيب سليمان بن عبد الملك طنه وأحبط مسعاه فلم ينفذ له غرضه ولم يبلغه أمانيه ، بل أذن له فقط بالذهاب إلى الأندلس ، فذهب وحيدا وعاش في قصره بقرطبة دون أن يمارس عملا كأمر الخليفة. وظل طيلة حياته يندب حظه ، ولا غرو فالجزء من جنس العمل إلى أن مات تاركا ذرية كثيرة كان لها شأن كبير في سياسة الأندلس بعد ذلك كما يقول «التاريخ» .

كلمة ختام

وبعد فهذه سيرة موسى بن نصير أحد أعلام القواد العرب المبرزين في دولة آل مروان ، والذي ينتسب الى قبيلة ربيعة العدنانية وهي تعد من أشرف القبائل العربية وقد تقلد معظم أبنائها مناصب الصدارة في الجاهلية والاسلام ومؤسسها ربيعة بن نصير اللخمي أحد ملوك اليمن والجد الأكبر للنعمان بن المنذر (ملك الحيرة) بالمراق .

أما كيف انتسب النعمان العراقي الى ربيعة ؟ فإن ذلك قصة تروى عن ربيعة بأنه رأى في منامه رؤيا تطير منها . فسرّها الكهان :

بان الاحباش سيرثون عرشه ، وقد وقع هذا فعلا في عهد أبرهة صاحب الفيل ومن بعدهم الفرس . ثم الاسلام) . فأوجس خيفة وبعث على الفصور بأولاده الى الحيرة حتي يظلو له الأمر .

وفي الحيرة تزوج ابنه (على) فأنجب (عمرو) وهذا أعقب المنذر ابن ماء السماء (اسم أمه) ومنه كان المناذرة جميعا .

ومن ربيعة أيضا انحدرت قبائل بكر بن وائل وعبد قيس وتغلب و « بنو حنيقة » وهي قبائل خرج من إسلامها زجال

أفذاذ ذاع صيتهم . منهم المثني بن حارثة الشيباني الذي سأل عنه الخليفة أبو بكر فقالوا له : (هذا رجل غير حامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد ، هذا المثني بن حارثة الشيباني) .

وقد خاض المثني معركة (بجوار الكوفة) ضد الأكاسرة ففضى على قوتهم وأزال بذلك عن العرب عار الهزيمة يوم (الجسر) وأعاد العراق ثانية عرييا مسلما ، وقال كلمته المشهورة (والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب ، ولمائة من العرب اليوم أشد على من ألف من العجم) .

ومنهم البطل الشهيد عبد الرحمن الغافقي العابر لجبال البرت والقاتح لغرتسا . وغيرهما كثير عربوا البلدان وهزموا الامبراطوريات ، وقد اشتهروا بالدهاء وعلو الهمة والمخاطرة بأرواحهم في سبيل الله وتحقيق آمالهم .

فلا غرو أن اجتمع لموسى بن نصير الى جانب الاصل العريق والمنبت الكريم العقل الراجح الطموح والشجاعة والدهاء .

فقد رأينا كيف ألقى بنفسه في أتون الفتن ليتبوا المكان اللائق بطموحه ، فلما فشل في (مرج راهط) لم يفر الى ابن الزبير في مكة ، بل ركن الى مخبئه يدبر الامر ويرقب سير الأحداث حتى دفعته نفسه الطموح الى الانضمام الى صفوف المروانيين لكي يعود ثانيا الى مسرح الحياة ليسعى الى تحقيق أهدافه وآماله العريضة .

فبعث الى صديقه (عبد العزيز بن مروان) يستجير به . ولم ير في ذلك ما ينقص من قدره ما دام فيه تحقيق أهدافه والوصول الى أغراضه .

ولما نال ما يمتنى استعمل دهاء المروث في السيطرة على صديقه فاستطاع في وقت وجيز أن يصبح المستشار الاول لثلاثين المصري من الامبراطورية العربية ، ثم وزيرا للخراج بالبصرة ، ثم حاكما للمغرب ، ثم فاتحا وقائدا عظيما عن قواد الدولة العظام .

لقد كان موسى طموحا شجاعا لا يريد الا أن تكون انتصاراته من صنع يديه فقد عبر البحر ووطىء بقدميه ارض أسبانيا وقال لأدلائه : دلوني على طريق غير الطريق الذى سلكه طارق ، اذ لم يقبل أن يشترك معه فى غزواته بل انطلق يدمر الحصون ، ويفتح البلدان ويدك معاقل الشرك .

ولما رأى القوم (القوط) قد جمعوا من الخيل آلافا مؤلفة وهو مالا طاقة للمسلمين به بعث فى التو الى طارق لوفاته بجنوده لتوحيد الصفوف حتى يحارب العرب أعداءهم جبهة متحدة وصفا واحدا فتم له النصر ودانت اسبانيا بعد ذلك للحرب مئات السنين .

وقد تجلّت من قبل ذلك عبقريته كقائد محنك عندما تزحف لغزو مدينة ماردة ، فرأى قوة القوط الحربية كلها وقد تجمعت فيها ، ولما لم يفت الحصار فى عضدهم أقدم على تنفيذ خطة حربية أخذتها عنه الجيوش الألمانية الحديثة ضد الحلفاء فى معركة العلمين وهى التظاهر بالانسحاب ، فقد أمر موسى الجيش بالانسحاب ثم دار حول المدينة دورة سريعة فى الليل، وتحت زاوية من سورها الضخم وقف بجنوده يصنع سترا خشبيا كبيرا ، فلما فرغ منه وضع تحته فرقة من الجنود وأمرهم بنقب فرجة فى السور لينطلقوا منها داخل المدينة، وقد ظن الأعداء أن المسلمين صنعوا هذه الدبابة الخشبية ليتخذوا منها ستارا يقيهم ضربات السهام والنبال .

ونجحت خطة موسى واقتحم المسلمون المدينة وبمعدنهم عنيف رفعت المدينة راية التسليم .

وقد تجلّى دهاؤه عندما أرسل اليه الخليفة (الوليد بن عبد الملك) رسوله مفيثا الرومى يأمره بالسفر فوراً الى دمشق ، فقد ساوم موسى مفيثا ووعدّه بمنحه نصف مايقسم على أن يؤخر رحيله الى ما بعد اخضاع اسبانيا كلها غير مهمتهم لما يبذل من مال فى سبيل تحقيق أهدافه فطلما ارتوى منه غنى شبابه وإنما كانت عقيدته تشر الوحشية فى تلك الأرض وهدفه الصيت العريض والمجد الحربى الذى يتساوى مع مجد الاولين من المهاجرين والانتصار وقد كان له ما أراد .

ولولا تصميم موسى بن نصير على اخضاع الاندلس
وتدمير قوتها الحربية تدميرا شاملا ما استقر الأمر للمسلمين
ولفقد ايضا المغرب عروبتيه التي جاهد في سبيل احيائها
فرسان المسلمين مدة سبعين عاما . حتى أصبح المغرب الآن
بمناوبة الجناح الغربى للأمة العربية تخفق معه قلوب العرب
من الخليج الى المحيط .

والحمد لله أولا وآخرا ..

عبد العزيز حافظ دنيا

انتهى بحمد الله

المصادر

حسب ورودها فى المتن مع الشكر الجزيل لأصحابها.

خالد بن الوليد	الفريق طه الهاشمى
عبقريه خالد	عباس محمود العقاد
الفاروق عمر بن الخطاب	الدكتور محمد حسين هيكل
الأخبار الطوال	أبو حنيفة أحمد الدينورى
معاوية بن أبى سفيان	ابراهيم الايبارى
الحوارج فى الاسلام	عمر أبو النصر
عبد الملك بن مروان	الدكتور ضياء الدين الرئيس
أبو بكر والوحدة	محمد حلمى محمود
مصر فى العصور الوسطى	الدكتور على ابراهيم حسن
نظرات فى التاريخ الاموى	عبد السلام رستم
الشرق والغرب من الحروب الصليبية	محمد على الفتيت
الى حرب السويس * جزء ٢	الدكتور على حسن الخربوطلى
المختار الثقفى	
البيان المغرب فى أخبار ملوك الاندلس	
والمغرب	
المغرب الاسلامى	جزء ١
تاريخ الرومان	
السيرة النبوية *	
محمد ج ٣	
فجر الاندلس	
نفح الطيب	
تاريخ العرب فى اسبانيا	
دولة الاسلام فى الاندلس	
البطولة العربية فى الاندلس وفرنسا	
حين ملهمة	
	محمد صبيح
	الدكتور حسين مؤنس
	أحمد بن محمد المقرئ
	محمد عبد الله عنان
	» » »
	عبد العزيز حافظ دنيا
	وليم دى بيت * * بقلم اسماعيل
	مظهر (مؤسسة فرانكلين)

[illegible]

القسم الأول :

نسب موسى بن نصير ومولده وفجر حياته
السياسية ١٥

الفصل الاول : أسرى عين التمر ١٥

الفصل الثاني : مولد طفل ٢١

الفصل الثالث : بيعة مروان ٢٦

الفصل الرابع : حيرة موسى ٣٣

الفصل الخامس : موسى في الأسر ٣٥

الفصل السادس : موسى المستشار ٣٩

الفصل السابع : موت مروان - وتولية عبد الملك ٤٣

الفصل الثامن : مصرع قتلة الحسين* ٤٦

الفصل التاسع : مصرع المختار ٥٠

الفصل العاشر : مقتل مصعب بن الزبير ٥٢

الفصل الحادي عشر : مقتل عبد الله بن الزبير ٥٤

الفصل الثاني عشر : موسى الوزير ٥٩

الفصل الثالث عشر : موسى اللاجئ ٦١

الفصل الرابع عشر : موسى الفاتح ٦٤

القسم الثاني :

شمال افريقية والشعوب التي حكمتها ٦٧

الفصل الاول : افريقية ٦٧

الفصل الثاني : المغرب في ظل الفيتحيين ٧٢

الفصل الثالث : المغرب في ظل الرومان الغربيين ٧٧

الفصل الرابع : المغرب في ظل الوندال ٨٠

الفصل الخامس : المغرب في ظل الرومان الشرقيين ٨٦

القسم الثالث : الفتوح العربية للمغرب ٨٩

الفصل الاول : فتوح عمرو بن العاص ٨٩

الفصل الثاني : فتوح عبد الله بن أبي السرح ٩٤

الفصل الثالث : غزوات معاوية بن حديج التجيبي ٩٨

الفصل الرابع : فتوح عقبة بن نافع الاولى ١٠١

الفصل الخامس : حملة أبي المهاجر دينار ١٠٤

الفصل السادس : فتوح عقبة بن نافع الثانية واستشهاده ١٠٦

الفصل السابع : حملة زهير بن قيس البلوي واستشهاده ١١١

الفصل الثامن : غزوات حسان بن النعمان ١١٣

الفصل التاسع : غزوات موسى بن نصير ١١٨

القسم الرابع :

موسى بن نصير يستأذن الخليفة في فتح

أسبانيا ١٢٣

١٢٣	الفصل الأول : مقدمات فتح الأندلس
١٢٩	الفصل الثاني : الغزوة الصغرى
	القسم الخامس :
	اسبانيا والشعوب التي حكمتها قبل الفتح
١٣١	العربي
١٣١	الفصل الأول : اسبانيا واليهود
	القسم السادس :
١٣٧	الفتح العربي لاسبانيا
١٣٧	الفصل الأول : تياشير النصر
١٤١	الفصل الثاني : المؤامرة
١٤٣	الفصل الثالث : معركة لكه وفرار لذريق
١٤٩	الفصل الرابع : الى طليطلة
١٥١	الفصل الخامس : موسى بن نصير في الأندلس
١٥٧	الفصل السادس : موسى بن نصير ومقتل لذريق
١٦٥	الفصل السابع : غزو الشمال وسك النقود
	القسم السابع :
١٦٩	خاتمة : موسى بن نصير ووفاته
١٦٩	الفصل الأول : رحيل بلا عودة
١٧٣	الفصل الثاني : جزاء سنمار
	القسم الثامن :
١٨٣	الجزء من جنس العمل
١٨٣	الفصل الأول : خاتمة طارق بن زيادة
١٨٧	الفصل الثاني : خاتمة مغيث الرومي
١٨٩	كلمة ختام :
١٩٣	المصادر

الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ٨٦
المن ٤٠

Bibliotheca Alexandrina



0501028